محمد الغزالى



نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم

الأجزاء العشرة الثانية

دار الشروق

إهــــــــداء ٢٠٠٨

أسرة المرحوم الأستاذ/ محمد إدريس

جمهورية مصر العربية


نحو تفسير موضوعي
لسور القرآن الكريم
الأجزاء العشرة الثانية

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

محمد الغزالي



الأجزاء العشرة الثانية

دار الشروق

مقـــدمـــة

هذه هى الأجزاء العشرة الثانية من المصحف الشريف ، تضمنت عشرين سورة من القرآن بدءاً من سورة يونس إلى سورة العنكبوت .

وقد أعان الله على تفسيرها وفق الخطة التى وضعناها ، وهى إلقاء نظرة عامة على السورة تضم الكيان الذى نزلت به .

وتلتقط كما قلنا صورة شمسية للسورة القرآنية ، تبدو فيها الملامح والمعالم مجتمعة ويستطيع التالى أن يدرك أهداف السورة وقضاياها الكبرى .

ولولا عون الله ماستطعت المضى فى هذه الخطة ، فهى نسق جديد فى التفسير لسور القرآن كلها ، ارتَدْتُهُ راغبًا فى خدمة الكتاب الكريم على نحو أقرب نفعا .

والرائد يشغله عناء الكشف عن إحسان الترتيب والتبويب .

فليكن ذلك التفسير تمهيداً لمن يجيئون بعدى يبنون عليه ويزيدون فيه ! .

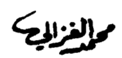
إن حفْظنا ـ ونحن صغار ـ لألفاظ القرآن حجبنا عن التدبر الواعى لآفاق كل سورة ، والمحور الذى تدور عليه . فهل استطعتُ فى هذا التفسير أن أستبين الأبعاد ، وأربط القارئ بالسورة مكتملة المقدمات والنتائج ؟ .

أرجو أن أكون قد وفقت وستر الله قصورى ! .

فالقرآن الكريم عالم ضخم من المعانى والعبر نرمقه كما يرمق الناظر الأفق البعيد . . .

عزائى حسن النية ، وحب الله ورسوله وكتابه .

وأضرع إلى الله أن يعيننى قبل حلول الأجل على إتمام الأجزاء العشرة الأخيرة حتى أتم التفسير كله « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .



سورة يونس

سورة يونس مكية ، تشبه سورتى الأنعام والإسراء فى موضوعها : وهو التعريف بالله عن طريق النظر فى ملكوته ، والتأمل فى خلقه .

وعندى أن الأسلوب المكى الذى اتجه أول ما اتجه إلى الوثنيين قدير على تحريك العقل ، وإشعال الفكر الخامد ، ودفع الناس بقوة إلى ربهم . والاعتماد عليه، يصلح عند مخاطبة العلمانيين والماديين وأحزاب الملاحدة الأخرى .

إن من خصائص القرآن العامة فى طَوْرَيْه المكى والمدنى أنه كتاب إنسانىٌّ يهيب بالبشر أن يصحوا من غفلاتهم ، ويتعرفوا على ربهم ويستعدوا للقائه .

ورعاية مقتضى الحال جعلته يناقش الكتابيين فيما أثاروا من قضايا واختلقوا من بدع ، وذلك ظهر جليا فى الطور المدنى .

أما عبدة الأصنام فإن المنطق الحسّى كان يسيطر عليهم ، والعمل للدنيا وحدها هو مايشغلهم ! وهذه أمراض تشبه ماوفدت به الحضارة الحديثة ، فإن الناس فى أوروبا وأمريكا ـ وحيث امتدت هذه الحضارة ـ لا يهتمون بالله ولابلقائه .

والأديان القديمة لاتترك فى نفوسهم أثرًا ذا بال ، إنهم يعبدون الحياة وَحَسْبُ ، ويتركون لرجال الكهنوت مكانا يتحركون فيه حسب مواريثهم التى يؤمنون بها ، وهى مواريث قلما تؤمن بمنطق العقل والعدل . . .

ومن المضحك أن أحد سماسرة الفكر الاستشراقى زعم أن الأسلوب المكى عاطفى ، وأن المدنى عقلانى ، لأنه تأثر بالجو العلمى عند أهل الكتاب . فلما أراد الاستدلال على المنطق العلمى للقرآن المدنى جاء بآية مما نزل بمكة المكرمة !! جاء بقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » [1] ! فانظر إلى هذا الطمس . . .

والقرآن عموما يؤكد أن الوجود الأول الذى نعيش فيه تمهيد لوجود آخر سوف نبعث فيه ، وأن

---

(١) الأنبياء : ٢٢

الذين يعرفون الله هنا سوف يعرفونه هناك . يمكن أن نقول : إنه وجود واحد نحسّ مبادئه هنا أيام التكليف والمعاناة ، ونحس نهايته هناك أيام الحساب والمجازاة .

والحضارة العصرية ترفض ذلك كله .

نحن هنا نسبح بحمد الله ، ونشكر آلاءه ، ونقوم بواجباته ، أما هناك فإن التسبيح والتحميد وأداء الواجبات سيكون طبيعة فينا لاتقترن بمعاناة أو تكلّف ! « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين »[1] .

مَنْ أنِس بالله هنا أنِسَ به هناك ، وسعد فى جواره ! أما من أنكره هنا فماذا ينتظر هناك ؟! .

إن الاستغراق فى عبادة اليوم الحاضر ، والذهول التام عما وراءه ديدن الحضارة الغربية . وخدمُ الديانات الأولى يُردِّدُون ألفاظا لاتقدم ولا تؤخر فى مسير هذه الحضارة . « إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون »[2] .

والمنطق المادى يستغرب القرآن الكريم ، أو يستغرب الوحى كله ، لأنه مادى لاينظر إلى السماء أبدا إلا عند التفكير فى غزو الكواكب . . !! إنه كفر شديد الغرور .

وقد بدأت سورة يونس بتصوير هذا الموقف : « تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم . . قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين »[3]!

إن الإيمان من قبيل البداهات السهلة ، وما عكّر مورده إلا كهان محترفون أوجهال معاندون .

وفى هذه السورة نرى الرباط وثيقا بين الإيمان والصلاح ، فلابد مع الإيمان من عمل صالح ، قال تعالى : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط »[4] وقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم »[5] . .

وبعد قليل قال : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »[6] والإحسان هو مجموع الإيمان الواضح ، والعمل الصالح عندما يسيران معا فى الحياة على ضوء من شهود الله ورقابته .

وقد عرّفت السورة أولياء الله بأنهم الجامعون بين اليقين والتقوى : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون »[7] .

---

(١) يونس : ٩ ، ١٠ (٢) يونس : ٧ ، ٨ (٣) يونس : ١ ، ٢
(٤) يونس : ٤ (٥) يونس : ٩ (٦) يونس : ٢٦
(٧) يونس : ٦٢ ، ٦٣

وتدبر ما جاء على لسان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »[1] . وقوله تعالى : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم . . »[2] وقوله : « إن الله لايصلح عمل المفسدين »[3] .

إن الأمة الإسلامية لم تُسْتَثْنَ من جملة الأمم الأخرى ، ولم تنل شيئا من المحاباة ، بل قيل لها : إن الجزاء من جنس العمل .

وإذا كانت الأمم البائدة قد جنت ماغرست ، وذاقت ماقدمت ، فإن المسلمين معاملون بالمنطق نفسه « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وماكانوا ليؤمنوا . . . كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون »[4] .

ومضت السورة حتى خواتيمها تؤكد هذه الحقيقة : « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتبع مايوحى إليك واصبر حتى يحكم الله . . . »[5] .

قارن بين هذا الختام العادل المنصف ، وبين ماقيل للرسول أول السورة : « أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم »[6] تجد أن وظيفة محمد إقامة العدل وإحقاق الحق وإبطال الباطل وأنه ـ فى هذه السورة ـ يكوّن أمة لاتختال ولاتغتال ، بل أمة تعرف ربها وتُعرّف به ، وتمشى على صراطه ، وتطمئن إلى لقائه .

أمة تتجنب سيرة الفراعنة الذين ذُكِر فيها نبؤهم ، فلا تغترُّ بثروة أو سلطة ، بل تحارب الجبروت والطاغوت ، ونقول مع موسى وهو يدعو ربه : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم »[7] .

لو سأل أحد : منْ ربُّنا الذى كُلفنا بعبادته وسنعود للقائة بعد انتهاء آجالنا فى هذه الدنيا ؟ لكان الجواب : ماجاء فى سورة يونس « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ، مامن شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون[8] »؟؟ .

إن هذا جواب مجمل يحتاج إلى تفصيل تولّته آيات أخرى فى السورة نفسها ، إن هناك ألوفا مؤلفة من الأفواه القاضمة والبطون الهاضمة .

تُرى مَنْ هيّأ لها أرزاقها ومن حوّل هذه الأرزاق إلى لحم وشحم وعيون وآذان ؟ .

---

(١) يونس : ١٥ (٢) يونس : ٢٧ (٣) يونس : ٨١
(٤) يونس : ١٣ ، ١٤ (٥) يونس : ١٠٨ ، ١٠٩ (٦) يونس : ٢
(٧) يونس : ٨٨ (٨) يونس : ٣

من جعل العيون تبصر ، والآذان تسمع ؟ إن هذه الحواس النفيسة أجهزة محكمة معقَّدة فى كيان واحد ، فكيف صاغتها القدرة فى ملايين من الكائنات ؟ « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون [(١)] »؟ .

إن الفلاح يضع حبة واحدة فى الطين فتخرج له ألف حبة !! من حوّل الحمأ الكريه الطعم والرائحة إلى قمح أو أرز أو ذرة يستحلى طعمها ورائحتها ؟ .

من حول المخلّفات العضوية إلى قصب سكر ؟ وإلى أزهار وورود ترفّ عليها ألوان الطيف ، وتفوح منها أنواع العطور؟«فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون»[(٢)]؟!

والغريب أن بعض الناس بدل أن يسير فى الأرض فيبحث كيف بدأ الخلق انتكس على رأسه ورأى أن يبحث فى ذات الخالق يحاول أن يعرف كنهها ! .

إنه يفر من وظيفته الطبيعية ، ويستر بطالته القبيحة بعمل باطل ! .

وقد كان هذا الانتكاس من أسباب غروب الحضارة الإسلامية وانهزامها العالمىْ .

ونحن مع التفويض فى فهم آيات الصفات ! فإنا نوقن بأن الله استوى على عرشه استواء يليق به ، وشرع يدبّر بحكمته شئون العالم الذى خلقه من غير شريك ولا معين ، ويستحيل أن يستعين الخالق بالمخلوق ، والقادر بالعاجز .

وعلى الناس كلهم أن يعرفوا هذه الحقيقة ، فلا يتجهوا فى دعائهم إلى أحد سواه .

وقد عاب القرآن الكريم على الجهال الذين يفعلون ذلك : « ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ! قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » [(٣)] .

والواقع أن البشر ـ وفى مقدمتهم الرسل ـ والملائكة ـ وفى مقدمتهم جبريل ـ عبيدٌ لله ، عانون لحكمه ، خاضعون لسلطانه : « لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون» [(٤)] .

ومع صحة العقيدة تصحّ العلاقة الإنسانية بالله ـ جل شأنه ـ ويكسب المرء الوجود الدائم فى الحياة الباقية ، وتتحول الدنيا إلى ذكريات حسنة .

---

(١) يونس : ٣١ (٢) يونس : ٣٢

(٣) يونس : ١٨ (٤) الأنبياء : ٢٧ ، ٢٨

إن عشرات السنين فى عمر الفرد ، أو عشرات القرون فى تاريخ الدول تتحول إلى أصول عارضة أو ساعات قلائل : «ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم . . . »[1].

لكن ساعة التعارف هذه بعيدة المدى فيما تُعْقِبُ من أحزان أو أفراح ، ولذلك يقول ابن القيم :

فحيَّ على جنات عدن فإنها — منازلك الأولى وفيها المخيَّمُ !

ولما كان عقاب الخطأ قد يطول انتظاره ، فإن بعض الناس يحسب هذا الطول إهمالا لا امهالا.

كان اليهود قديما يُحَيُّون المسلمين فيقولون لهم : السام عليكم ، أى : الهلاك ، ويحسبون أنهم بذلك بلغوا آملهم : « . . . وإذا جاءوك حيَّوْك بما لم يحيّك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنّم يصلونها فبئس المصير »[2] .

إنهم يستعجلون العقوبة ، وكلما تأخرت ازداوا ريبة ! .

ومن قبلهم كان المشركون يكفرون بالله الواحد ، ويحادّون رسوله ، ولثقتهم فى أنهم صادقون كانوا يتعجلون العقاب على مايفعلون استهزاء وكفرانا : « ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »[3] . هذا الاستعجال الذى شرحنـاه هنا هو ماعنته سورة يونس فى قوله تعالى : « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون »[4] .

وهذا الإنذار يتلاقى مع قوله تبارك اسمه : « وربك الغفور ذو الرحمة لويؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه مؤئلا »[5]لكنه فى هذه السورة يسائل المجرمين : لم الاستعجال ؟ وماجدواه عليكم ؟ .

أليس الأَوْلَى أن تتوبوا قبل أن تعاقبوا ، وأن تستغلوا الإرجاء لما فيه خيركم ؟! « قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أونهارًا ماذا يستعجل منه المجرمون . أثُمّ إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون »[6]؟ .

هل يستطيع أحد الإفلات من عقاب الله يوم يجىء فى موعده المقدور ؟ كيف والأشياء كلها ملك لله ؟ « ألا إن لله ما فى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون »[7].

هذا فيما لايعقل ، أما فيمن يعقل فقد قال جل شأنه : « ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن . . . . »[8] .

---

(١) يونس : ٤٥ (٢) المجادلة : ٨ (٣) العنكبوت : ٥٣ ، ٥٤

(٤) يونس : ١١ (٥) الكهف : ٥٨ (٦) يونس : ٥٠ ، ٥١

(٧) يونس : ٥٥ (٨) يونس : ٦٦

فإذا كان الكون كله من أشخاص وأشياء مسترقًا لله ، وكان ملكا محضا لله سبحانه ، فأين يفرّ امرؤ بجريرته ؟ ومن يجيره ؟ « ويستنبئونك : أحقٌّ هو ؟ قل : إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين »[1] !! .

ما الذى يدعو للعجب عندما يختار الرحمن رجلا يوحى إليه ويبلّغ عنه ؟ قد يكون الشعور بالحسد على نحو ماقيل : « أأنزل عليه الذكر من بيننا . . . »[2] .

وقد يكون الغضب لتجريح الوثنية وتقاليدها ، فإن الذين ورثوا التعدد ينكرون التوحيد ، والذين ورثوا تقاليد المادية العابدة للحياة الدنيا ينكرون كل كلام عن الحياة الأخرى . .

وسورة يونس من السور التى رفعت راية الوحدانية ، وأفاضت فى دلائل الوجود الأعلى ، وشرحت من آفاق الكون مايشير إلى عظمة الله « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون»[3] .

وقد رفض العرب هذا الوحى ، وتعرضوا للقرآن الكريم فى ثلاثة مواضع من هذه السورة .

الموضع الأول : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدِّله . . . »[4] قل كلاما آخر تمدح فيه آلهتنا ، وتُقِرّ فيه تقاليدنا وأحوالنا !! .

« قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ . . . »[5]

ثم بين لهم الرسول الكريم أنه بلغ الأربعين دون أن يتلو وحيا أو يصحح دينا حتى فاجأه الوحى ، فبلغ أمر ربه ، ولا يملك إلا البلاغ « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون »[6]؟ .

والموضع الثانى لذكر القرآن الكريم قوله تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين »[7] .

والقارئ المنصف بعد ما يتلو القرآن يشعر أن محمدا لم يفتعل كلمة منه ، وأن حرارة الدعوة إلى الحق تسرى فى سياقه سريان الماء فى النبات الغضّ .

وأنه لا يصح فى الأذهان شىء لو نزل هذا القرآن بعيدا عن الله .

بل سيدلّ هذا ـ إذا اعترفنا بالكتب السابقة ـ على أن البشر أقدر على صناعة الوحى من رب البشر !!! فإن القرآن فى الدفاع عن الألوهية ووحدتها أَحَرُّ نَفَساً وأصدق لهجة وأسطع برهانا . .

---

(١) يونس : ٥٣ (٢) ص : ٨ (٣) يونس : ٥ (٤) يونس : ١٥

(٥) يونس : ١٥ (٦) يونس : ١٦ (٧) يونس : ٣٧

و إذا كان القرآن قول إنسان فما يمنعهم من الإتيان بمثله ؟ « أم يقولون افتراه . قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » [١] .

استعينوا بكل ذى مقدرة بلاغية من الإنس والجن على تأليف كتاب مشابه أو سورة مماثلة !! .

وقد مضت القرون على هذا التحدّى القائم فما أتى أحد بشىء !! « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله . . . » [٢] إنهم جُهّال أَرْجَأَ القدر عقابهم لعلهم ينتهون .

ثم جاء تفصيل لمواقف الناس من هذا الكتاب : « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » [٣] فما الموقف من هؤلاء الشاكّين المكذبين ؟ « وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون» [٤] .

إن جوًّا من حرية الرأى لم يُعهد فى الدنيا كلها حفّ عرض هذا الكتاب على الناس ، فلا إحراج ولا إكراه ، وسوف يستجيب له يقينا أصحاب المشاعر المفتوحة ، والأفئدة المتجردة للحق !

أما غيرهم : فماذا تفعل لأصمَّ غلّف التعصب أذنيه فهو لايسمع ؟ ولا يعى ؟ أو أعمى لاترى أجفانه أَلَقَ الفجر فهو لايبصر شيئا !! «ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون ؟ . ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » [٥]؟ .

وفى موضع ثالث من السورة يقول الله سبحانه عن هذا القرآن : « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » [٦] .

والقرآن نعم المربّى للنفوس ! إنه زاجر عن الرذائل ، وعاصم من الشبهات والشكوك ، وراحة من الحيرة ، وغنى نفسىٌّ ومادىّ لصاحبه .

ولذلك جاء بعد ذلك : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » [٧] وإن إنسانا أوتى القرآن ثم ظن غيرهُ أوتى خيرا منه فقد حقرّ عظيما ، أو عظّم حقيرا ! .

وقد جاهدا النبىّ أعداءه بالقرآن فأوقع فى صفوفهم الخلل ، لأنه لم يبق لهم وجهة نظر ، إلا أدحضها ، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتلو القرآن فى كل ساحة ، ويتنقل به فى كل بقعة ، ولذلك قيل له هنا : « وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » [٨].

---

(١) يونس : ٣٨ — (٢) يونس : ٣٩ — (٣) يونس : ٤٠
(٤) يونس : ٤١ — (٥) يونس : ٤٢ — (٦) يونس : ٥٧
(٧) يونس : ٥٨ — (٨) يونس : ٦١

وجاء آخر السورة مصدقا لأولها فى الاستمساك بالوحى والتعويل عليه . فإذا كان للناس عجب أن أوحينا إلى رجل منهم ، فآخر آية فى هذه السورة يقول الله للرسول : « واتبع مايوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين »(١) .

إن النزاع بين المسلمين وغيرهم شديد حول هذا القرآن ، ونحن على يقين من أنه الحق المبين .

وقد تجيء عبارات لايعرف حقيقتها إلا الخبراء بالبلاغة العربية فيتوهمون مالا أصل له ، ففى معرض التحريض والتثبيت نقول للسابق المتفرِّد : لا تكسل ، أو حافظ على القمة التى بلغت ، وهو مايفكر فى كسل أو تفريط ، ولكنك تهيجه ليظل ممتازا .

ومن هذا القبيل قول الله لنبيه : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك . . . » (٢) أيتصوَّر أن يسأل المثلِّثين عن التوحيد ؟ أو يسأل المجسِّدين عن التنزيه ؟ وهو يخاصمهم من أول يوم ؟! ولذلك جاء فى الأثر ؛ لا أشك ولا أسأل !! ولو افترضنا جَدَلا أن هناك سؤالا فهو كسؤال النائب العام للمتهمين ، أوسؤال المتثبت للمُريبينَ !! فإن الله واحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد !! .

وتلك العقيدة دعامة الإسلام التى لايثار حولها تساؤل . وكذلك القول مع اليهود ـ وهم المذكورون فى سياق السورة ـ إن التهم التى وجهوها للأنبياء ولله تباركت أسماؤه ليس بطلانها موضع شك ، ولا يقبل حولها تساؤل ، ومن هنا جاء هذا الخطاب الحاسم « . . . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين . إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » (٣) .

ذلك ، وللعقل الإنسانى حكمه الجازم ، فلن يكون الله اثنين ولا ثلاثة ، ولن تلحق به آفات النقص البشرىّ كما يزعم الجاهلون .

تمر بالإنسان أيام عصيبة يشعر فيها بالألم والعجز ، ويحس أن الأزمات أخذت بخناقه ، وأنها ـ إذا بقيت ـ فهى قاضية عليه ، فيهرع إلى الله طالبا النجدة ، ملتمسا الفرج ، ويدعو ويلحّ . . .

وتنكشف الكروب آخر الأمر ، فهل تبقى مع المرء حرارة إيمانه ؟ وصدق تطلعه إلى ربه ؟ . . أم تفتر حرارته وينسى ؟ .

يقول الله تعالى : « وإذا مسّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسَّه ! كذلك زين للمسرفين ماكانوا يعملون » (٤) !! وهذا مسلك ينطوى على خِسَّة ، والواجب أن يتذكر الإنسان مَنْ أنقذه فى شدته ، وامتنّ عليه بفرجه ، وأن يتشبث به فى السراء كما كان يتشبث به فى الضراء .

---

(١) يونس : ١٠٩ (٢) يونس : ٩٤ (٣) يونس : ٩٤ ـ ٩٧ (٤) يونس : ١٢

وقد وصفت سورة يونس هذه الحال مرة أخرى بشىء من التفصيل : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون »[1] .

والواقع أن الناس عند الغرق وإحاطة اللُّجج بهم من كل ناحية تنقطع آمالهم إلامن الله وحده ، فلا ملجأ إلا إليه ولاغوث إلا منه . . . .

لكن لماذا تنسى يده التى أسداها إذا امتن بالنجاة ؟ لماذا يعود الناس إلى ذهولهم وكنودهم؟ هذا غدر يجب أن يعالج ومايبقى عليه ذو شرف !! .

والذين تغمرهم موجات السرور فلا يذكرون غيرها جديرون بما يحل بهم من عقاب ، وهذا العقاب ينزل عند قمَّة النشوة وغمرة الذهول ! قال تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفهاوازَّيَّنَتْ وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون »[2] .

إن المفاجآت الموجعة تطرق على حين غرة ، وتقطع خط التفكير العادى للأفراد والجماعات كما قيل :

وسالمتْكَ الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر . . .

والجوائح التى تنتاب الزروع والثمار فتودى بها تحدث عند اقتراب الحصاد ، واعتقاد الناس أن المحصول المرجوّ أمكن جناه ، بل صار فى اليد ! لعل ذلك ليكون العقاب أوجع . . .

ومن حق الناس أن يفزعوا إلى الله إذا مسّهم ضر ، ولكن من حق الله عليهم أن يشكروه بعد النجاة ، وأن تبقى علاقتهم به قائمة إذا انتهى ما ألجأهم إليه ، إنهم لن يستغنوا عنه أبدا .

والمثل الذى ضربته الآية للأرض المزروعة يطّرد فى كل شىء من أحوال الناس وشئونهم ، وقدراتهم الحضارية فوق ظهر الأرض ، فمع الغرور والذهول تجىء ضربات القدر ، ويحصد الناس مابذروا . . .

وقبل نهاية السورة يأمر الله رسوله أن يتوجه للناس بهذا الخطاب الرقيق المفعم بالعبودية والنصيحة . . « قل ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبدالله الذى يتوفاكم وأمرتُ أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولاتكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله مالاينفعك ولايضرك فإن فعلت فإنك إذاً من

---
(١) يونس : ٢٢ ، ٢٣ (٢) يونس : ٢٤

الظالمين. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم »[1].

هذا هو الإسلام ! رباط بالله الواحد ،ويأس من كل الشركاء ، إن كان لهم وجود ! وتعليق الرغبة والرهبة بذاته سبحانه ، والتعامل مع الناس جميعا على هذا الأساس . . .

وقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ فى هذه السورة أطرافا من قصص الأولين ، منها قصة يونس مع قومه التى ذكرت بإيجاز شديد ـ وسميت بها السورة ـ ولعل فى ذلك تلويحا بأن أهل مكة قد يظفرون بالنجاة التى ظفرت بها قرية يونس !!.

والواقع أن أهل مكة كابروا الإسلام أول ما ظهر مكابرة شديدة ، وقادوا المعركة ضده نحو عشرين سنة ، ولكنهم دخلوا فيه بعد ذلك ، وأخلصوا له وحملوا لواءه وحَمَوْا كعبته . .

إن قوم يونس كانوا خيرا من قوم هود وغيرهم ، قال تعالى : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين »[2].

والقصص المختلفة تساق فى أحوال مشابهة لما يعانى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيأخذ منها العبرة المناسبة ، ومنها تتشابه الردود على الكافرين وإن اختلفت العصور .

لقد ظل نوح مع قومه تسعة قرون ونصفا يدعو وهم يكابرون ، فما كان موقفه بإزاء هذا الإصرار؟ يقول تعالى : « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين . . . »[3].

وما قاله نوح لقومه هو ما يقوله محمد لقومه ، إن الرسل دعاة متجردون لايبغون مالا ولا جاها حسبهم التعريف بالحق . .

وذكرتْ بعد ذلك رسل ، ثم طال الكلام فى سيرة فرعون وقومه ، ثم فى سيرة بنى إسرائيل مع هداتهم .

إن الفراعنة أهلكهم بطر الحق وغمص الناس ، أما بنو إسرائيل فقد تاجروا بالوحى ، وتجرأوا على الله ، ولم ينتفعوا بما أوتوا من علم « ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »[4] وعلى أتباع محمد أن يتجنبوا هذه المزالق ، فيحملوا الدعوة بتجرد ، ويتجهوا إلى الله بإخلاص .

---

(١) يونس : ١٠٤ ـ ١٠٧ (٢) يونس : ٩٨ (٣) يونس : ٧١، ٧٢
(٤) يونس : ٩٣

سورة هود

بدأت سورة هود كما بدأت سور كثيرة بالحديث عن القرآن الكريم : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »[1] .

ولا غرو فالكتاب العظيم قاعدة الإسلام ، وبرهان رسالته ، وسر خلوده ، وقد تلقاه الرسول ليبلِّغه إلى الناس كافة فيخرجهم من الشرك إلى التوحيد ، ومن العوج إلى الاستقامة ، فالتشبث بالله وحده أساس النجاة : « ألاّ تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير »[2] .

ويظهر أن عبء البلاغ شديد ، أحسّ الرسول معه بالمعاناة ، فقد جاء فى السنة : قال أبوبكر: سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما شيَّبك ؟ قال : شيبتنى هود وأخواتها . . !! .

تُرى ماذا فى هذه السورة ينبت الشيب ؟ لقد شرعت أبحث عن السبب ! فقلت : لعله مصارع الأمم التى ضلت فحاق بها الهلاك ؟ إن هذه المصارع قصّها الله على نبيّه فى سور أخرى فلم تحدث هذا الأثر ! .

هل تنكُّر الناس للرسول وإشاحتهم عنه معرضين هو الذى شيبه ؟ فقد جاء فى هذه السورة : « ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرُّون ومايعلنون ، إنه عليم بذات الصدور»[3] .

وقد استبعدت هذا السبب ، فإن الرسول أكبر من أن يهتزّ لصدود الجهلة ! . إذن مالسبب ؟

إن هناك شيئا لاحظته فى هذه السورة لم ألحظه فى غيرها :

كثرة التوجيهات التى تمس شخص الرسول ، وتتناوله بضمير الخطاب المفرد بين الفينة والفينة ، كأنما تشعره بما هو مكلف به من بلاغ .

وذلك بدءًا من قوله تعالى له : « فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل »[4] فى هذه الآية وحدها خطاب تكرر الضمير فيه ثلاث مرات متصلا ، ومرة واحدة منفصلا . .

---

(١) هود : ١ (٢) هود : ٢ (٣) هود : ٥

(٤) هود : ١٢

وظل الأمر كذلك يتكرر على هذا النسق عشرات المرات ـ كما سنرى ـ حتى آخر آية فى السورة : « ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه ومابربك بغافل عما تعملون »(١) .

عقب قصة نوح مع قومه ، وبعد هلاكهم بالطوفان جاءت هذه الآية خطابا للرسول الكريم : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين »(٢) .

ثلاثة ضمائر متصلة غير الضمير المنفصل ، تتجه كلها إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينضم إليها فى النهاية أمر بالصبر ، والعاقبة للتقوى ! .

وفى أثناء القصة نفسها يتوقف السرد الدافق لتجىء هذه الآية : « أم يقولون افتراه ؟ قل إن افتريته فعلىَّ إجرامى ، وأنا برىء مما تجرمون »(٣) .

وحاشاه أن يفترى ! إنه الصادق الأمين ، وسيبقى إلى جانب الصدق حتى يكشف القدر عن أهدى الفريقين . . .

ويحكى القرآن الكريم قصة عاد وكيف تحدّتْ هوداً وآذتْه ، ثم يقول رب العالمين : « ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ »(٤) ويتجه الخطاب بعدئذ إلى رسول الله : « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعَصَوْا رُسُلَهُ واتبعوا أمر كل جبار عَنيد»(٥) .

وماحدث لعاد حدث مثله لثمود ، واتجه الخطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلفته إلى هذا المصير ، فى قوله تعالى : « فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ . . . إن ربك هو القوى العزيز »(٦) .

وبعد ما حلّ بقوم لوطٍ من دماءٍ زلزل مدينتهم بلغ الله نبيه هذا المصير بقوله : « فلماء جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسوَّمةً عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد »(٧) والجملة الأخيرة تهديد للعرب الذين يمضون فى طريق الغواية دون متاب .

وبعد هلاك مدين والفراعنة يقول الله لنبيه : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد»(٨) وتتكاثر ضمائر الخطاب فى أواخر السورة تكاثراً مثيرا حتى لتبلغ ثمانية عشر ضميرا، عدا الأوامرالمصاحبة الكثيرة فما تظن وقع ذلك على فؤاد صاحب الرسالة ؟! .

---

(١) هود : ١٢٣ — (٢) هود : ٤٩ — (٣) هود : ٣٥

(٤) هود : ٥٨ — (٥) هود : ٥٩ — (٦) هود : ٦٦

(٧) هود : ٨٢ ، ٨٣ — (٨) هود : ١٠٠

ويبدأ ذلك من قوله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ومازادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد »[1] .

ويتكرر اسم الربّ مضافا إلى ضمير الخطاب مرتين عند ذكر جزاء القيامة « فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد »[2] ومرة ثالثة عند ذكر السعداء : « وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلاماشاء ربك عطاء غير مجذوذ »[3] .

ثم يقول الله له : « فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء . . . »[4] ويذكره بقضائه السابق أن يرجئ مجازاة الناس كلهم إلى يوم موعود : « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم »[5] وإلى أن يقع هذا اليوم الجامع فعلى صاحب الرسالة أن يصدع بما يؤمر ، وأن يتحمل آلام الاختبار وطول الانتظار ، وعلى من معه أن يتأسَّوْا به فى هذا الصبر الطويل « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك »[6] ، « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين »[7] . .

وتتكرر ضمائر الخطاب كلما قاربت السورة الانتهاء ، وتدبر قول الله لرسوله : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »[8] .

ألا يفسِّر هذا قول الرسول الكريم « شيبتنى هود وأخواتها » ؟ .

المعصية العابرة لاتدمر المستقبل ، إنها تولد لتموت ، وقد يلحقها من الندم مايمحو لها كل ذكرى حسنة . بل ربما كانت « لقاحا » يحصن من الوقوع فى مثيلاتها ، فنفعت من حيث ضرّت! .

إن المعاصى التى تهلك الأمم هى التى تستقر فى النفس ولا تعبرها ! تستقر فيها لتكون جزءا منها ، ولتكون بعدئذ جزءا من المجتمع الكبير ، لعلها تتحول إلى تقليد متّبع أو إلى تشريع قائم ، فيكون البعد عنها مستغربا والنهى عنها جريمة !! .

وتدبر كلام قوم لوط له : « . . . وماكان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون »[9] لقد أمسى التطهّر منكرا والتدنس مألوفا .

---

(١) هود : ١٠١ ، ١٠٢ (٢) هود : ١٠٦ ، ١٠٧ (٣) هود : ١٠٨
(٤) هود : ١٠٩ (٥) هود : ١١٠ (٦) هود : ١١٢
(٧) هود : ١١٤ (٨) هود : ١١٧ـ١١٩ (٩) الأعراف : ٨٢

والحضارات الفاجرة هى التى تهوى إلى هذا الدرك . وقد ظهرت أمارات السقوط على الحضارة المعاصرة فى جوانب شتى . . وأهلها بحاجة إلى من يقول لهم ماجاء فى صدر سورة هود : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله . وإن تولَّوْا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير »[1] .

إن الوعد المبذول للتائبين على عجل هو « مستوى معيشة حسن » !! والنفس تحب العيش الرَّغْد ، ومع أن الحياة الدنيا دار ابتلاء ، والابتلاء يقتحم النفوس بالمزعجات ، إلا أن الله يطمئن عباده بأنه سوف يريحهم ويصلح بالهم إذا آمنوا به وأسلموا له وجوههم ! .

وهذه العِدَةُ المبذولة لنا بذلت من قبلنا لعاد عندما قال لهم أخوهم هود : « وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين . قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين »[2] .

والذى يسمع هذه الإجابة يحسب القوم أهل حوار عقلىٍّ ، وأنهم إذا شُرِح لهم الدليل تبعوا الدليل ! .

والقوم لاعلاقة لسلوكهم بعقل ! وأى ذكاء تنتظر عند عبدة الأصنام ؟ هل عبدوا الحجارة عن دليل ؟ لقد كانت إجابتهم من قبل لهود موضع استغراب عندما قالوا له وهو يدعوهم إلى عبادة الله الواحد : « إنا لنراك فى سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين »[3] فكان من رد الرجل الحليم عليهم : « قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين »[4] .

والقصص تتكرر فى القرآن ، وفى كل واحدة منها ملحظ لايرى فى الأخرى ، وإنما تعرف حقيقة القوم كاملة من الجمع بين شتى القصص فى صعيد واحد ، وهذا الصنيع يحتاج إلى علم خاص به . . .

وفى سورة هود جاءت قصص الأولين ومصارعهم على النحو الذى تم فى سورة الأعراف ، لكنك تقرأ هنا تفاصيل عن قوم نوح لم ترد قط فى سورة الأعراف .

تفاصيل استغرقت نحو صفحتين على حين لم تأخذ من سورة الأعراف إلا سطورا .

ويشعر المرء بالروْع من مناشدة نوح لربه أن يردّ إليه ابنه الذى طاح : «ونادى نوح ربه فقال ربّ إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين »[5] .

---

(١) هود : : ١ ـ ٣
(٢) هود : ٥٢ ، ٥٣
(٣) الأعراف : ٦٦
(٤) الأعراف : ٦٧ ، ٦٨
(٥) هود : ٤٥

كأنه يقول لله لقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى ، وابنى أول أهلى فرُدَّه إلىّ !! فكانت الإجابة الصارمة : « قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ماليس لك به علم، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين »[١] .

وقد تبادر إلى بعض الأذهان أن امرأة نوح غشّت رجلها وخانته وأتت بهذا الابن لغير رشدة وادخلته فى نسب نوح وهو لايدرى !! .

وهذا رأى بعيد ، وهو غضاضة يصون الله أنبياءه منها .

والصحيح أن امرأة نوح خانته بانضمامها إلى أهلها فى استهجان نبوة نوح وتكذيب رسالته ، فكانت بهذا الموقف من حزب الكافرين ، وكان ابنها يؤيد موقفها ويظاهر أعداء الله ويتلمس النجاة من الطوفان بالهرب إلى رأس جبل .

وهيهات! فإن الهلاك العامّ طواه كما طوى غيره . وهذا معنى الآية : « قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم . . » إلخ .

وكان جواب نوح : «قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين . قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك »[٢].

ودين الله على امتداد النبوات واختلافها ، من عهد نوح وإبراهيم إلى موسى وعيسى ومحمد يؤخر نسب الدم ويقدم نسبِ الإيمان ، ويجعل الحب والبغض فى الله أساس التواصل أو التقاطع . . .

وندع قوم نوح إلى قوم هود الذين رفضوا نبيهم ونفروا منه أشد نفور ، إنه لما رأى نفسه وحيدا أمام أناس مكابرين معاندين قال : « إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم »[٣] .

وجاء العقاب الإلّهى وكان شديداً حاسما . . فإذا العمالقة المغرورون بقواهم تحملهم الريح العقيم وتجلد بهم الأرض بعنف ، فإذا رءوسهم تطيح وأبدانهم تبقى« كأنهم أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابى وَنُذُرِ »[٤]؟

أما هود والمؤمنون معه فكان لهم شأن آخر : « ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ »[٥] .

وختمت القصة الكئيبة بهذا التعقيب : « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا

---

(١) هو د: ٤٦ (٢) هود : ٤٧ ، ٤٨ (٣) هود : ٥٦
(٤) القمر : : ٢٠ ، ٢١ (٥) هود : ٥٨

أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادًا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود . . . . »[١] .

إن الأقوياء الفجرة عندما تحقُّ عليهم كلمة الله يصبحون أهون من الذرّ ! ماتغنى عنهم قواهم شيئا أمام من بيده ملكوت السموات والأرض .

لا أدرى مادهى العرب العاربة حتى أجمعت على تكذيب الأنبياء واضطهاد أتباعهم ، فاستحقت الهلاك العام ، فسُمُّوا العرب البائدة . . ؟! .

ذكرنا نبأ عاد ، ونذكر الآن نبأ ثمود وموقفها من نبى الله صالح .

ويظهر أن نظام الطبقات الذى نجم أيام نوح ظهر على نحو أقوى بين جماعة ثمود ، وأن أغلب الذين تبعوا صالحا كانوا من المستضعفين : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ! . قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون »[٢] !! .

وذهاب المرء بنفسه رذيلة ، ويزداد السوء إذا ذهبت أمة بنفسها ! .

والتعصب الجنسى ينشأ من هذا الكبر الأعمى . . . وهو من وراء النزعات القومية التى شاعت قديما وحديثا بين الناس .

وهذا التعصب كامن فى الجنس الأبيض الذى يسكن أوربا وأمريكا الآن ، تظهره القوة ويُخفيه الضعف . وقد كان موجودا فى الجاهلية العربية ، تلمحه فى قول عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنا المـاء صفواً ويشـرب غيرنا كـدرا وطينـا !!

لماذا أيها المغرور ؟ وإذا كانت صيحة : ألمانيا فوق الجميع ، أو مصر فوق الجميع ، قد اختفت فإن الولاء الوطنى والصلف العلمى والانتفاع الشخصى تجمّع كله وراء « القوميات الحديثة» فأمسى الارتباط بها فوق كل رباط !!! .

ولم يخلق الله الناس لهذه الدعاوى الفارغة ، ولذا يقول فى قصة ثمود : « وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربِّى قريب مجيب »[٣] .

والواقع أن الخطاب لثمود يتناول البشر كلهم الذين أنشأهم الله من الأرض ، ووظفهم فى عمرانها ، وكلفهم بعبادته فيها حينا من الدهر ، ثم يعودون بعدئذ إليه ليسألهم عما قدموا . .

---

(١) هود : ٥٩ ، ٦٠ (٢) الأعراف : ٧٥ ، ٧٦ (٣) هود : ٦١

ونحن نعلن دهشتنا لفريقين من الناس يملآن الأرض الآن : فريق لايحسن تعمير الأرض ويعيش فيها مع الهمل ويزعم أنه مؤمن !.

وفريق استثار الأرض وامتلكها وغزا بعدها الفضاء ، وصلته بالله صفر أو فوق ذلك بقليل . .

وثمود كانوا أشبه بالنوع الثانى ، وقال لهم نبيهم صالح : « واذكروا إذْ جعلكم خلفاءمن بعد عاد وبوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين »(١) .

ولكن ثمود أعماها الطغيان والكبر فلم تشكر نعمة ولم ترع لله حقا : « فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يؤمئذ ، إن ربك هو القوى العزيز »(٢) .

وجاءت مدين بعد ثمود ، فجمعت فى حياتها بين الفساد السياسى والفساد الاقتصادى .

وقد رأينا فى سورة الأعراف أن الحرب المعلنة على الفساد السياسى كانت أبرز ، أما فى هود فإن التنديد بالعوج الاقتصادى كان أبرز .

فى السورة الأولى طلب الله من أهل مدين أن يصبروا على الرأى الآخر ، وأن ينظروا فى أدلته ، وألا يتوعدوا أصحابه : « ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدّون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين»(٣) .

لقد انقسم الناس أمام دعوة شعيب قسمين : منهم من اقتنع بها ودخل فيها ، ومنهم من رفضها وخاصم أصحابها .

ليكن !! دعوا الزمن يفصل فى هذه القضية ، ويحق الحق ويبطل الباطل ، ولا تهدّدوا أنتم المؤمنين بالنفى والتشريد ، وترغموهم على ترك ما آمنوا به : « وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين »(٤) .

ولكن مدين آثرت الاستبداد الأعمى ، والفتنة الغبيّة : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . . . . »(٥) .

وفى سورة هود اتَّسَم الخطاب الموجَّه إلى قوم شعيب بمحاربة الغش فى المعاملات الاقتصادية بعد محاربة الإشراك بالله : « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . وياقوم أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . . . »(٦) .

---

(١) الأعراف : ٧٤ (٢) هود : ٦٦ (٣) الأعراف : ٨٦
(٤) الأعراف : ٨٧ (٥) الأعراف :٨٨ (٦) هود : ٨٤ ، ٨٥

وكان رد مدين على نبيِّها مزيجا من السخرية والتهكم : « قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد »[1] .

وهكذا رفضوا عقيدة التوحيد وأخلاق الصلاح والعفة والعدالة .

فلما بقى النبى الصالح فى ميدان الخير يأمر وينهى قيل له : « . . . وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز »[2] .

وانتهت القصة بهلاك الفَسَدَة الغاشّين كما هلك من قبلُ غيرهم : « ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود »[3] .

وأهلك الله الفراعنة فى حديث سوف نعرض لتفاصيله فى سورة أخرى ، ثم قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « وكُلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »[4] .

إن سورة هود فصلت أحوال الأمم مع رسلها ليعلم صاحب الرسالة الخاتمة أنه لاجديد فى تكذيب قريش له ، فالصراع بين الحق والباطل أزلىّ لافكاك منه ، ولكن النتائج الحاسمة تنصف المؤمنين وتعزّ المتقين .

قرأت كلاما عن الانفجار العظيم الذى بدأ به الكون ، ودارت بعده الأفلاك ، ومنح العالم سَمْتَهُ المعروف الآن .

إن أعداد السنين التى صاحبت هذه النشأة تعجز العادِّين . خُيِّل إلىّ ، أن هذه السنوات أكثر من حبات الرمال فى الصحراء الكبرى ! .

قلت لنفسى : فما شأن خالقها المبدئ المعيد ؟ وكان الجواب : أن صفاته أزلية لا أول لها ولا آخر ! .

ولاشك أن إبداع هذا العالم مدهش ! ولكن أوغل منه فى الإدهاش إبقاؤه وإمداده بحياته .

إن خلق جنين واحد شىء كبير ، وأكبر منه إرسال الغذاء إليه لينمو حتى يبلغ أشدّه ، أهو جنين واحد ؟ إن عالم الحيوان والنبات فوق الحصر « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين »[5] ! ! .

قلت ـ وأنا أتضاءل فى نفسى ـ : ما أكون أنا ؟ وما يكون الكوكب الكبير الذى أحيا فوقه ؟ إن علماء الأحياء أفهمونى أن بين مشارق الكون ومغاربه آمادا بعيدة ! ! .

وأجاب إيمانى بالله على هذا السؤال : إن رب العرش العظيم يستوى عنده قرب المكان

---

(١) هود : ٨٧ (٢) هود : ٩١ (٣) هود : ٩٥

(٤) هود : ١٢٠ (٥) هود : ٦

وبعده، وطول الزمان وقصره ! وهو على عرشه معى بسمعه وبصره وقيُّوميته .

وطمحت أفكارى إلى حدٍّ فوق طاقتها ، فتساءلت عن هذا العرش والاستواء ؟ وكان الجواب : إن الذى يجهل ماتحت قدمه لايصلح له هذا التطاول .

خير لك أن تعرف لماذا وجدت ، وأن تحقق الحكمة من وجودك ، فهذا أولى بك : « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا . . »[1]

فلأحسنْ عملى ، ولأصقلْ عقلى ، ولأُزكِّ نفسى ، ولأحقق ثمرة وجودى ، فهذا أولى وأجدى علىّ .

إن هذه الدنيا طريق إلى أخرى أهمّ وأبقى ـ وإن جهل كثيرون ـ : « ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين »[2] .

إن الجهلة يستعجلون هذا العذاب : تكذيبا له أو استهانة به ! أفلا يؤمنون به إلا إذا لذع جلودهم ؟ فما قيمة الإيمان به بعد وقوعه ؟ « ولئن أخَّرْنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولنّ : مايحبسه ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون»[3] .

مصيبة الإنسان أنه عبد لحظته الحاضرة ، وساعته العاجلة ، وأنه عندما يستنجد بربه لضرٍّ أصابه لايكاد يستقبل النجدة المرسلة حتى ينسى ماكان ، ويجحد يَدَ الرحمن « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير»[4] .

البشر محتاجون إلى كتاب يعرِّفُهم من أين جاءوا وإلى أين يصيرون ؟؟ .

وهذا التعريف يؤتى ثمرته يوم يجىء دويًّا يخرق جدار الذهول ، وبليغا يصل إلى قاع الفؤاد ! أى : أعندما يجىء كتاب معجز للكل ! وفى السورة السابقة ـ سورة يونس ـَ جاء التحدى بسورة واحدة أما فى السورة التى تلتها فقد جاء التحدى بعشر سور .

وهذا ـ فيما نرى ـ زيادة فى قهر النفوس ، وإشعارها بالعجز ، فإن الذى ينهزم أمام ضربة واحدة يغْرَقُ وينهار إذا قيل له : أمامك عشر ضربات ! « أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون »[5]؟ .

---

(١) هود : ٧ (٢) هود ٧ (٣) هود : ٨
(٤) هود : ٩ ـ ١١ (٥) هود : ١٣ ، ١٤

إن محمدا كان يسير بين الناس مؤيدًا بهذا البرهان الإلّهى الحاسم ، ومن قبل هذا البرهان كانت نبوءات الكتب الأولى تشهد له ، فَمَنْ أرسخ منه قدما ؟ « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلاتك فى مِرْيَةٍ منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لايؤمنون »[1] .

ثم إن الكبار لايكذبون على الناس فكيف يكذبون على الله ؟ وهل كذبٌ أن يقال : إن الله واحد ، وإن لقاءه حتم ، وإن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم ؟ ! فأين يكون الصدق ؟ .

كان هذا المهاد سابقا لتأريخ الأمم التى عُرض عليها الدين فكفرت به ، لقد هلكت أمة بعد أخرى ، وآثارها بواقٍ تدلّ عليها ، ومنها ماحُصِد فلم يبق له وسم ولا رسم . .

لِم هذا المصير الأشأم ؟ أما كان هناك أهل فكر واعتبار ينذرون ويحذرون « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » [2] .

على هذا النهج اللاجب سار محمد يدعو الأولين والآخرين ، بيد أن الناس كانوا ـ ومايزالون ـ منقسمين على أنفسهم لاتجمعهم راية الحق .

ما أكثر المشارب والمذاهب التى تفرق بينهم ، وتجعل لكل واحد وجهة يرتضيها .

كان ربك قديرا أن يجعلهم غير ذلك ، ولكن شاءت حكمته أن يدعهم وشأنهم « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين » [3] وهنا رأس آية ! كأن الاختلاف سنة طبيعية فى التكوين البشرىّ ، ثم قال : « . . . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »[4] .

كان ربنا يستطيع أن يخلقنا ملائكة لاتستطيع العصيان ، أو حيوانات معزولةعن التكليف ، ولكنه جعلنا بشرا مختارين ، نستطيع الهبوط إلى سجّين ، أو الصعود إلى علّيين .

---

(١) هود : ١٧ (٢) هود : ١١٦ ، ١١٧ (٣) هود : ١١٨
(٤) هود : ١١٩

سورة يوسف

ربما أحسّ يوسف الصديق وهو صبى أن له شأنا عند الله ! من يدرى ؟ قد يكون من المصطفين الأخيار الذين يقودون الناس فى ميدان الشرف والحق ! إنه أصغر إخوته ، ولكن سيرة إخوته الكبار لاتومئ إلى فضل ولا تنضح بخير . . . وهو أقرب إلى أبيه منهم وأحبّ ! .

مَنْ يدرى ؟ لعل ميراث النبوة يكون من نصيبه ؟ إن يعقوب أباه ورث إسحاق ، وإسحاق ورث إبراهيم ، فهل يكون حلقة فى هذه السلسلة ؟ وشاء الله أن يسوق إليه البشرى فى رؤيا صالحة « إذ قال يوسف لأبيه : ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . . . »[1] .

وشام يعقوب من الرؤيا مستقبل ابنه الصغير ، وخشى عليه من إخوته ! « قال : يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب . . . »[2] .

لكن أحقاد الإخوة الكبار لاحقت الشابّ المختار ، فإذا هو مطارد مقبوض عليه مرمىٌّ فى قعر بئر بين الهلاك والنجاة . . .

ويشاء الله أن يقذف فى روعه بالأمل العريض ، إن هؤلاء الإخوة الأقوياء المتآمرين عليه سوف يقفون بين يديه يوماً ليوبِّخهم على ما صنعوا ! إنه الآن صغير مغلوب على أمره أمامهم ، وغدا سوف يسائلهم على مايفعلون ! .

لقد تركوه وحده ظانين أنهم انتهوا منه ، وهيهات !! فالله غالب على أمره « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجبّ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون »[3]

إن يوسف ـ وهم يولّون ـ رمقهم كما يرمق القاضى المتّهمين ! وانفسح أمامه المستقبل ، فأدرك أنه الرابح وهم الخاسرون . .

ويشاء الله ـ بعد عشرات السنين ـ أن تتحقق هذه النبوءة ، وأن يجيء أولئك الإخوة إلى يوسف أذلة يطلبون الصدقة بعد أن صار عزيز مصر ، وهم لايعلمون : « فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعةمزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق

(١) يوسف : ٤ (٢) يوسف : ٥ ، ٦ (٣) يوسف : ١٥

علينا إن الله يجزى المتصدقين . قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون »[1]؟

إن ساعة العسرة فى قعر الجبّ كانت الطريق إلى القمة فى هذه الدنيا ، فما أعجب أقدار الله !!

والواقع أن اليقين المتألق بالرجاء فى طلب يوسف ، انحدر إليه من يقين أبيه فى الله ، فعندما رجع الإخوة الكبار بعد تنفيذ مؤامرتهم يقولون لأبيهم « .. إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين »[2] ، قال : « بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »[3] إن الصبر الجميل أعقب الخير الجزيل ، وحقق ليوسف وأبيه ماكانا يؤملان . . .

وقصة يوسف قطعة من تاريخ الأحياء ، وليست رواية من وضع بشر .

وأدب القصة شائع فى عصرنا شيوعا واسعا ، وهو ـ على اختلاف مادته ـ خيال مفتعل ، ينفخ فيه المؤلف الروح ، فإذا أبطال الرواية يتحركون نحو مارسم المؤلف لهم من وجهة ، وبما يُجرى على ألسنتهم من حوار ، والمسئولية بدءا ونهاية على الكاتب الذى يملى أفكاره ، ويخدم مبادئه وأغراضه .

وقديما اختار مؤلف « كليلة ودمنة » أشخاصه من الحيوانات ، فأنطقها بما شاء من جدّ وهزل . .

أما التاريخ المسطور فهو نسق آخر تظهر فيه سنن الله فى الناس ، وتملى الحقائق نفسها على من يحسن الإفادة والاعتبار ، ولذلك يقول الله لنبيه : « نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين »[4] وليس لمحمد دخل فيما أوحى الله إليه ، إنه يتلقى ما يجيئه وَحَسْبُ !! « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون »[5] .

وقد ختمت السورة بآية يصح أن يوصف بها كل ماساق الإسلام من قصص « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[6] .

وقصة يوسف فى الدعوة إلى الله والدأب على البلاغ ـ مهما كثرت العوائق ـ مثل يُحتذى ، ويظهر

---

(١) يوسف : ٨٨ ، ٨٩ (٢) يوسف : ١٧ (٣) يوسف : ١٨
(٤) يوسف : ٣ (٥) يوسف : ١٠٢ (٦) يوسف : ١١١

أن نبوته بدأت مع بلوغه الرشد ، قال تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين »[١] .

والحكمة والمعرفة أولى هدايا الله لأنبيائه ، وقد قال الله فى لوط ـ عليه السلام ـ : « ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث . . »[٢] وقال فى موسى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين »[٣] .

وقد بيع يوسف سليل الأنبياء عبدا رقيقا ! وكان الذين باعوه زاهدين فى استبقائه كأنه حمل ثقيل ! .

ما أعجب تصاريف الليالى ! مَلَك كريم يباع على أنه سلعة كريهة !! « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . . . »[٤]

وانتقل ابن الأنبياء إلى قصر الملك ليعمل فيه ، وليواجه نوعا آخر من الابتلاء ـ يخطر له ببال ! .

لقد كان فى هذه الفترة الباكرة من شبابه حسن المعرفة لربه ، صاحب تقوى يتفرَّد بها ، وشقّ لنفسه طريقه الخاص « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون »[٥] .

كان يوسف يقدر البيت الذى آواه ، ويصون محارمه ، وكانت لرب البيت مكانة خاصة عنده ، فهو لم يكن فرعونا من الفراعنة المستعلين فى الأرض ، بل كان رجلا دميث الأخلاق ، ظاهر الشرف .

وقد أحبه يوسف وعرف له حقوقه . ثم إن الأيام لم تنس يوسف أصله العريق ودينه الموروث ، لقد كان آباؤه دعاة إلى الله ، فليبق على نهجهم فى عبادة الله الواحد ، وفعل الخير ، وترك الآثام .

إن هذا البيت تبنّاه ، لكن التبنّى لاينشئ علاقة طبيعية ، وإذا كان عزيز مصر قد أحب يوسف لشمائله النبيلة ، فإن امرأة العزيز أكنَّتْ نحوه عاطفة أخرى !! .

كان يوسف رجلا رائع الجمال ، أوتى نصف الحسن الموجود فى العالم كله .

ونظرت الأم المزعومة إلى رجل قريب منها يعيش فى كنفها وسلطانها فطمعت فيه ، ويوسف

---

(١) يوسف : ٢٢ — (٢) الأنبياء : ٧٤ — (٣) القصص : ١٤

(٤) يوسف : ٢١ — (٥) يوسف : ٢١

فوق هذه المنزلة الموهومة ، فقد صقل الإيمان طبعه ، وزكّى نفسه ، وقوّى بالله صلته ، فلم يخطر بباله أن يلم بدنيّة !! .

فلما تعرضت له المرأة ثاريقينه فى أعصابه ، وذكر مواثيق الشرف التى ورثها عن آبائه ، وذكر معها حرمة رب البيت الذى آواه وكرمه ، كيف يطعنه فى عرضه ؟ « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله ، إنه ربّى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون »[1] .

ومفروض فى الإيمان العادىّ أن ينجح فى هذه التجربة ، فقد جاء فى السنة أنه بين السبعة الذين يظلهم الله يوم لاظلّ إلا ظلّه : «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله . . . »[2] !! ويوسف فى هذا الموطن الخطير أحقّ من يخاف الله ! .

وقد رفض المعصية يقينا ، صرحت بذلك امرأة العزيز وهى تقول : « . . . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم »[3] .

وقد كان يوسف شابا مكتمل الرجولة ، ناضج الغريزة ، وكانت نفسه تهوى ، ولكن دون ذلك الموت ، فما يمكن أن يتدلىّ إلى هذا الدرك ، كانت نوازع الشرف والدين والتقوى تكبت كل نداء .

ولو كان شابا بارد الطبع لاشهوة له فمن أين يكون له فضل ؟ « ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين »[4] !! .

لقد انتصرت المقاومة المؤمنة على المراودة الخاطئة ، وبقى يوسف ذاكرًا لربه وقافا عند حدوده . . !!

وأقبل العزيز ، وامرأته تشدّ قميص يوسف ، وهو يفرُّ منها ! كانت المعركة قد بلغت نهايتها ، وعندما شعرت الزوجة السفيهة بحرج موقفها اتجهت على عجل تقول له : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم »[5] !!

وصاح يوسف ـ والشواهد على صدقه متكاثرة ـ « قال : هى راودتنى عن نفسى . . . »[6] .

اللهجة العفيفة ، والجبين المتألق بالشرف ! يشهدان له ، ولم يكن هناك تسجيل للصوت أو للصورة يحكم فى القضية ، فبقيت القرائن العقلية .

---

(١) يوسف : ٢٣

(٢) الحديث أخرجه البخارى ومسلم ، انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (كتاب الزكاة) باب : فضل إخفاء الصدقة ١/ ٢١٦ رقم ٦١٠ .

(٣) يوسف : ٣٢ (٤) يوسف : ٢٤ (٥) يوسف : ٢٥ (٦) يوسف : ٢٦

المرأة الولهى شدَّت الشاب الفارّ من خلفه فمزقت ثوبه ، وإلا فالشاب هو المتهم ، هكذا يقول القضاء : « وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قُدَّ من دبر قال : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم »[1] .

والحكم بالقرائن من أدلة الشريعة ، ويمكن اعتباره فى البصمات وتحاليل الدم وما أشبه ذلك مماجدّ فى هذا العصر . . .

بيد أن امرأة العزيز قاومت القرائن التى توفرت ضَدها ، بل جمحت بها مشاعرها السائبة جماحا بعيدا ، فلما تناثرت الشائعات حولها تركت الإنكار وعالنت بعاطفتها وعذرها معا .

وكأنها تقول لمن يتحدث عنها : لو كنت مكانى لسلكت مسلكى !! من الذى لايعشق البدر؟! « وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين »[2] !

وجمعت المرأة النسوة اللائمات وأمرت يوسف أن يخرج عليهن فى حفل أعدته يأكلن فيه الفواكه، وغيرها ، فلما طلع عليهن يوسف شُدِهْنَ ، وحارت الألباب ، وجرحن أيديهن بما فيها من سكاكين . . وقلن : « ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم »[3] .

وهنا كانت العاطفة المشبوبة قد بلغت ذروتها بامرأة العزيز ، فجن جنونها وقالت : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين »[4] .

إن هذا تصريح خرج فى غيبة العقل ، كانت المرأة فيه مغلوبة على أمرها حتما، ولكن الدنس هو الدنس ، ولو دافع عنه « فرويد » وأساغته حضارة الغرب ، وساقت حوله المعاذير . .

وكان يوسف يجسّد الشرف والرجولة ، وأدب النفس ، وإرضاء الله عندما قال : « ربِّ السجن أحبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم »[5] .

كيف نجا من هذا الكيد ؟ ترك القصر لصاحبته ، فأخرج منه وهو الأمين عليه ، الحافظ لحقه، وأودع السجن حتى تختفى القصة كلها وراء أسواره « ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين »[6] .

---

(١) يوسف : ٢٦ـ٢٨ (٢) يوسف : ٣٠ (٣) يوسف : ٣١
(٤) يوسف : ٣٢ (٥) يوسف : ٣٣ ، ٣٤ (٦) يوسف : ٣٥

فى سوة يوسف ثلاث رؤى جاءت كوضح النهار .

أولاها : ما قصّه على أبيه أول السورة من سجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا ، وسنعرف ـ بعدُ ـ تأويل هذه الرؤيا .

أما الثانية فقد وقعت مع مبادئ عهده بالسجن : « ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين »[1] !

والرؤى ضرب من الغيوب يتصل بالجانب الروحى من الإنسان ، وهى ـ مع صدقها ـ ليست دلالة خير ولاشر ، إنها دلالة قوة خارقة فى الكيان البشرى يستشرف بها على مايُعجز غيره من الناس ! .

وأعرف رجلا كان فى القاهرة ، وأراد السفر إلى الريف رأى فى منامه جنازة قريب له ، والمشيعون حولها ، وهى تخرج من دارهم متجهة إلى المقابر فى موكب معين ! .

فلما سافر إلى القرية شاهد الموكب نفسه على النحو الذى رآه لم يختلف منه شىء . . . كانت الرؤيا حقا . .

وأعرف من انكشفت لهم غيوب على هذا النحو دون سبب ظاهر ، ومن ذلك الرؤية عن بعد فقد حكوا عن الفيلسوف الألمانى « كانت » أنه رأى حريقا على بعد أكثر من مائة ميل ، وروينا نحن قصة عمر بن الخطاب الذى كان يخطب فى المدينة ، فَسُمِعَ يقول : ياسارية الجبل !! وكان « سارية» أحد قواده ، وقد رأى عمر العدو يَخْتِلُ المسلمين من ناحية الجبل ، فصاح صيحته !! .

قالوا : وقد سمعها القائد وهو فى الجبهة ، ونجا بجيشه !! .

وليست لهذه الأحداث قاعدة مقررة ، وإنما ذكرناها لتلقى ضوءا على ما وقع ليوسف ، لقد سمع رؤى صاحبيه ثم تحدث عن نفسه : « قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ماكان لنا أن نشرك بالله من شىء . . . »[2] .

إن يوسف معتز بعقيدة التوحيد التى ورثها عن آبائه ، والتى صاحبته وهو يعبُر مؤامرات القصور المترفة ، والتى تصحبه الآن وهو داخل السجن ! .

وقد أبى إلا أن يتحدث عنها فى سجنه داعيا رفاقه إلى الإيمان : « ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟»[3] إن ماعدا الله وَهْمٌ لاحقيقة له ، واسم لامُسمًّى له ، فكيف نتعلق بالأوهام ؟ ونظن الأصفار شيئا ؟ .

---

(١) يوسف : ٣٦ (٢) يوسف : ٣٧ , ٣٨ (٣) يوسف : ٣٩

والغريب أن الحضارة الحديثة كشفت الكثير من عجائب الكون ، وعاينت من آثار العظمة العليا مايدفع إلى الله دفعا .! ومع ذلك فهى واهية الصلة بالله ، لاتفكر فى لقائه ، ولا تنتفع بوحيه ، ولا تكترث إلا بضروراتها المادية . ومايرقه معيشتها على ظهر الأرض . . .

وفسّر يوسف الرؤيا الثانية : « ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه . . »[١] مصيران متناقضان ، هذا مادلت عليه الرؤيا !! « وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين »[٢] .

إن ساقى الملك غمرته أضواء القصر فنسى السجن وأيامه ورفاقه ، ونسى الرجل المحسن البرىء المحبوس ظلما ! .

ولكن جدَّ ما ذكّر بيوسف بعد عهد طويل ، فقد رأى الملك فى منامه ما أفزعه ، وعجز من حوله عن تعبير رؤياه ، فقال الساقى : أرسلونى إلى السجن آتكم بالخبر اليقين !! « يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون »[٣] .

وفسر يوسف الرؤيا ، وأخبر الملك بالتفسير المهم وهذه هى الرؤيا الثالثة ، فقال : إيتونى بيوسف !! وأبى يوسف المجىء حتى تتحقق براءته وتمحى تهمته .

ودبّت الحياة فى القضية الهامدة ، وأحضرت النسوة العارفات بما حدث « قال ما خطبكن إذْ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيزالآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين »[٤] .

وقال يوسف ـ بعد هذا الاعتراف ـ قاصدا إفهام الملك ماكان : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدى كيد الخائنين »[٥]!! .

وشعر الملك أن يوسف أحق الناس بولاية الأمر فى أثناء السنوات التى تتحقق فيها الرؤيا ، إنه مستقبل شعب كبير ، وأحق الناس برعايته من تنبأ به « وقال الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين »[٦] !!

واختار يوسف لنفسه أن يكون وزيرا للمال مسئولا عن تموين الناس : « قال اجعلنى على

---

(١) يوسف : ٤١ (٢) يوسف : ٤٢ (٣) يوسف : ٤٦
(٤) يوسف : ٥١ (٥) يوسف : ٥٢ (٦) يوسف : ٥٤

خزائن الأرض إنى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين »[١] .

ونلحظ أن يوسف عرض الخصائص النفسية والعلمية التى ترشحه للمنصب ، فهو ليس عابدا عفيفا فقط ، بل صاحب خبرة فى شئون المال ، يعرف كيف يحصّله وكيف يوزعه .

وقد أباح لنفسه طلب المنصب لأنه ليس هناك من هو أحقّ به منه ، ومن المصلحة العامة أن توضع الأمور فى يد القوى الأمين بدل أن توضع فى يد عاجز قليل الخبرة . . !

وقد طلب خالد بن الوليد أن يقود المسلمين فى معركة اليرموك ، لأن غيره من القادة أعجز من أن يواجه فنون الروم العسكرية ، والتجارب هنا فادحة الخطأ .

لذلك طلب أن يمنح القيادة أول يوم ، فأعاد تعبئة الجيش ، ووضع خطة ذكيَّة لمواجهة العدوّ، وكان النصر !! .

إن طلب الإمارة خطيئة كبيرة يوم تكون استجابة لجنون العظمة ، ورغبة فى الوجاهة والاستعلاء . . وأغلب مصاب الأمم من أولئك المتطلعين المرضى .

قَدِمَتِ السنوات العجاف حسب رؤيا الملك وتفسير يوسف ، ويظهر أن جدبها تجاوز وادى النيل إلى بادية الشام ، فهرع أهلها يطلبون القوت من مصر التى استعدت لاستقبال الكارثة .

وكان إخوة يوسف بين أولئك القادمين ! « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون» [٢] . فأحسن وفادتهم ، وتعرّف على أحوالهم ، وبعد تلطف مقصود طلب منهم أن يأتوا معهم بأخيه الشقيق فى المرة التالية «قالوا سنراود عنه أباه و إنا لفاعلون»[٣] وفزع الأب لهذا الطلب وقال لبنيه : « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين»[٤] .

ولكن إلحاح الحاجة مع إلحاح الإخوة جعله يستجيب ، ولما أرسله معهم ـ وهم ذاهبون للمرة الثانية ـ « وقال : يابنيَّ لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون» [٥] .

ويظهر أن يعقوب خاف عليهم أن يتهموا بأنهم جواسيس دولة أجنبية ، لأن منظرهم ـ وكانوا فوق العشرة ـ وامتداد قاماتهم ، وفراهة هيئتهم ، يجعلهم نهب الظنون !! .

والتقى الكل عند يوسف الذى استقبل أخاه الشقيق استقبالا خاصا « ولما دخلوا على يوسف

---

(١) يوسف : ٥٥ ، ٥٦ — (٢) يوسف : ٥٨ — (٣) يوسف : ٦١

(٤) يوسف : ٦٤ — (٥) يوسف : ٦٧

آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون »[1] !! ولابد أن يوسف علم من أحوال أخيه ما جعله بهذه الكلمة يواسيه !.

ثم مكر يوسف مكرا حسنا بإخوته ، واستطاع بالحيلة أن يحجز أخاه ، وأن يفرض عليهم العودة إلى أبيهم بدونه ، لقد خبأ المكيال فى متاع أخيه ، فلما عثرت الشرطة عليه آخذتهم بالجريمة وطردتهم . . وعلم يعقوب بأن شقيق يوسف قد فقد هو الآخر فصاح : « عسى الله أن يأتينى بهم جمعا إنه هو العليم الحكيم »[2] !! .

والحق أن مصاب يعقوب جلل ، فقد كان يحسّ فى أعماق قلبه أن يوسف حىٌّ ، وأنه عائد إليه حتما ، فإذا هو يفقد ابنه الآخر ، وتتضاعف عليه الآلام ، فهو لايرى هذا ولا ذاك . . . «وتولّى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم »[3] .

وفى ضراعة أخيرة ورجاء باقٍ فى الله قال : « يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »[4] .

وخرج إخوة يوسف للمرة الثالثة إلى مصر ، كانت قلوبهم منكسرة ، وأحوالهم كئيبة ، وذلّتهم بادية « فلما دخلوا عليه قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين »[5] !!

وأماط يوسف اللثام عن شخصيته بعدما لمس من إخوته هذا الهوان ، وقال لهم فى نبرة هزت قلوبهم ، وأحيت الخامد من مشاعرهم : « هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون»[6] ؟ « قالوا أإنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخى قد منَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين »[7] .

ذكر يوسف سنة اجتماعية تشبه سنن الله الكونية ! التقوى والصبر ينتجان النجاح ، كما تقول : أوكسجين وإيدروجين ينتجان الماء ، أو تقول : زوايا المثلث تساوى قائمتين .

إنه بعد عشرات السنين من بدء الرواية أحسَّ الجميع أن قوانين الله حق « ومن أصدق من الله قيلا» ؟[8] . « قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »[9]

إن الكبير لايحقد ، وهو بعد انتصاره يزداد سماحة وتواضعا لله ، ثم قال يوسف لإخوته : «اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين »[10] .

---

(١) يوسف : ٦٩ — (٢) يوسف : ٨٣ — (٣) يوسف : ٨٤ — (٤) يوسف : ٨٧
(٥) يوسف : ٨٨ — (٦) يوسف : ٨٩ — (٧) يوسف : ٩٠ — (٨) النساء : ١٢٢
(٩) يوسف : ٩١ ، ٩٢ — (١٠) يوسف : ٩٣

وتحرك الركب من مصر إلى الشام ، وفجأة سمع الذين حول يعقوب صيحة استبشار منه لايعرفون مأتاها !! سمعوه يقول : « إنى لأجد ريح يوسف »[1] لولا أن تنسبونى إلى الحمق ! .

إن عالم الروح عجيب ! كيف سرت البشرى إلى فؤاد يعقوب ؟ كيف أحسّ بها وقع ؟ « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون»[2] .

وبعد أيام قلائل كان تأويل الرؤيا الأولى يتم كما تم تأويل الثانية والثالثة !! « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »[3] .

بعد أن تمت القصة التى سرد القرآن أحداثها قال الله لنبيه محمد : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون »[4] .

نعم إنه ما كان لديهم فيرى ، وماكان قارئا حتى يطالع أخبارها ، إنه الوحى الأعلى قصَّ عليه ما كان دون تزيّد ولاتحريف ، ومع ذلك فكثير من الناس مكذب بنبوة محمد .

وفى عصرنا هذا طاعنون من الوثنيين والكتابيين لاحصر لهم ، ولاينقطع لهم لغو ، ليكن »!! فلن يوقفوا سير الرسالة الخاتمة « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان اللهوما أنا من المشركين »[5] .

إنهم مغلقون لاتقع عيونهم من الكون على مايعرفهم بالله ، أو يقودهم إلى وحيه « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون »[6] .

---

(١) يوسف : ٩٤ (٢) يوسف : ٩٦ (٣) يوسف : ٩٩، ١٠٠
(٤) يوسف : ١٠٢ (٥) يوسف : ١٠٨ (٦) يوسف : ١٠٥

سورة الرعد

فى الآية الأولى من سورة الرعد يخاطب الله نبيه قائلا : « والذى أنزل إليك من ربك الحق » لكن هذا الحق يضل عنه كثيرون « ولكن أكثر الناس لايؤمنون »[١]!

هل هناك عذر للكثرة التى أعرضت عن الحق ورفضت الانقياد إليه ؟ لا .

فلنفرض أن وحيا لم ينزل ، أليس فى إبداع هذا العالم مايشهد لصاحبه بالألوهية والعظمة ؟ إن النظر السديد فى آفاق السموات والأرض شاهد صدق على أن جحد الألوهية غباء ، وعلى أن الأصفار التى اعتبرت شركاء خرافة مزدراة . . . !

ونترك قليلا الآيات التى وصفت الكون وكشفت آيات الله فيه ، ونتابع التأمل فى هذه الآية «والذى أنزل إليك من ربك الحق » فنرى صلة لها بآية أخرى من قلب السورة « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى »[٢] .

إن هؤلاء العالمين بحقائق الوحى هم الفضلاء الذين استقامت سيرتهم بعدما استنارت سريرتهم ، وقد أحصت الآيات ـ بعد ذلك ـ صفاتهم بدءاً من قوله تعالى : « إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل . . . »[٣]إلخ .

وقد تضمنت الآيات هنا عشر وصايا ، من استجمعها كان أهلا للجزاء الأوفى « أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم »[٤] .

وأولى هذه الوصايا : العقل الناضج ، وثانيتها : الوفاء بالعهد الأعظم المأخوذ على الفطرة البشرية أن تتجه إلى ربها . . ولا تشرك به شيئا . . .

وتكرر الحديث عن الوحى النازل ، وعن قيام الرسول بتبليغه فى قوله تعالى بعد ذلك : «كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن ! قل هو ربِّى لا إله إلاهو عليه توكلت وإليه متاب »[٥] .

---

(١) الرعد : ١ (٢) الرعد : ١٩ (٣) الرعد : ١٩ ـ ٢١

(٤) الرعد : ٢٢ ـ ٢٤ (٥) الرعد : ٣٠

وقد قاوم الأميّون من العرب هذه الرسالة مقاومة شديدة ، وكان محور عنادهم طلب خارق من خوارق العادات يشهد بصدق الرسول .

وقد بينت آيات أخرى أنهم لو أجيبوا إلى مقترحاتهم ما آمنوا ولَحاق بهم الهلاك .

أما فى هذه السورة قد صيغ الإنكار والرد فى عدة صور :

(١) « ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ولكل قوم هاد »(١) .

(٢) « ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب »(٢) .

(٣) ويمضون فى كفرانهم ليصلوا إلى هذه النتيجة « ويقول الذين كفروا : لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب »(٣) .

والواقع أن فاقد البصر فى الكون لا يُنتظر منه إيمان سليم ، ومن لم يحسن النظر فى نفسه وفى أجهزة جسمه وعقله لايُتوقع منه أن يعرف الله معرفة قيِّمة حتى لو مشى فى قوافل المؤمنين مع جمهور المقلدين . . !!

وقد خوطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتلاوة الوحى فى سور كثيرة « اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة . . . »(٤) .

« وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه »(٥) .

وجاء فى هذه السورة « . . . لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك »(٦) .

التلاوة المعْنيَّة هنا ليست قراءة مجردة ، إنها تفصيل منهج ، وخطة عمل ، وإنذار مبين ! وهى أساس ما ينبنى عليها من تزكية تقدمها برامج التربية المختلفة ، وتلاوة القرآن صيانة لأحرفه مما أصاب كتبا سابقة ، وتقديم التوجيه الإلٓهى المصفَّى إلى الأمة العربية لتنهض برسالتها ، فإن وفَّتْ نجت ، وإلا فالعقاب لها بالمرصاد : « ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لايخلف الميعاد »(٧) .

والرأى السائد أن سورة الرعد مدنية نزلت بعد سورة محمد ، والذى أميل إليه أنها مكية ، وأسلوبها يرجح ما أرى ، لاسيما والمشركون يلحّون فيها على طلب معجزة حسية مثل ماحكت سورة الأنعام ويونس والإسراء . . . إلخ .

---

(١) الرعد : ٧ (٢) الرعد : ٢٧ (٣) الرعد : ٤٣

(٤) العنكبوت : ٤٥ (٥) النمل : ٩١، ٩٢ (٦) الرعد : ٣٠

(٧) الرعد : ٣١

قلنا : إن الآية الأولى جاء فيها قوله تعالى : « والذى أنزل إليك من ربك الحق » وفى أواخر السورة نقرأ قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب »[1] .

فى هذه الآية نبوءة تحققت . فإن الإسلام عندما قرع أبواب مصر والشام ، سرعان ماهوت إليه القلوب ، ودخل النصارى فى دين الله أفواجا ، واعتنقوه ، وصاروا حَمَلَتَه وحُماته .

ومعروف أن بيت المال خَرِبَ لسقوط الجزية بعدما آمن الناس حتى اضطرّ الوالى فى مصر إلى استبقائها على من أسلم ! لولا أن عمر بن عبد العزيز كتب له : « ويحك ، إن محمدا بعث هاديا ولم يبعث جابيا ، ضع الجزية عمن أسلم » نعم ولو خرب بيت المال . . !!

ونصارى مصر والشام وسائر الأمم الأخرى التى شرحت بالإسلام صدرا أضحت عربية بالتجنّس والدين ، فالتعريب مورد مفتوح ينمو به الكيان العربى ويتجدَّد ، وفيهم تقال الآية : « وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم مالك من الله من ولىٍّ ولا واق »[2] .

وكلمة الحكم تعنى السلطة السياسية ، والحكمة القرآنية على سواء .

وقد انتشر الإسلام فى أطراف الجزيرة قبل أن يدخله أهل مكة الذين بقوا على وثنيتهم إلى عهد متأخر ، وهذا معنى قوله تعالى : « أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب »[3] .

القرآن دليل ناطق يقود إلى الله ، والكون دليل صامت يعرّف به .

وكلا الدليلين يحتاج إلى يقظة العقل ودقة الشعور ، وإلا فالغفلة والبلادة لاتجيئان بخير أبدا .

ولذلك يكثر فى القرآن الكريم قوله تعالى : « أفلا تعقلون » ؟ « أفلا تذكرون » ؟ .

وفى إيقاظ الحسّ النائم نقرأ الآية الكريمة « وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأُكُل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[4] .

ألا يستدعى التأمل أن ترى فى قطعة واحدة من الأرض شجرة عنب وشجرة ليمون وشجرة حنظل وشجرة شوك تُسْقَى جميعا بماء واحد ، ويختلف الجنى والمذاق واللون والأثر ؟ .

ألا يستدعى التأمل أن ترى الدودة تأكل من ورقة التوت فتضع حريرا ؟ وتأكل منه النحلة فتضع عسلا ؟ وتأكل منه الشاة فتضع بعْرا ؟؟ .

---

(١) الرعد : ٣٦ (٢) الرعد : ٣٧ (٣) الرعد : ٤١ (٤) الرعد : ٤

إن الإرادة العليا نوّعت الأنواع ، وصنّفت الأصناف فى فجاج الأرض وآفاق السماء على نحو مثير ، ومع ذلك يجىء امرؤ ملحد فيقول ؛ لا إله !! فماذا إذاً ؟ ويجىء آخر فيقول للرسول : لا أومن حتى تنسف هذا الجبل وتنشئ مكانه بستانا لى !! كأن رب الكون يستجيب لعبثه ! .

ويتحدث القرآن عن عظمة الخالق فى تناسل الأحياء من إنسان وحيوان وطير وزواحف ، إنها ألوف مؤلفة فى البر والبحر والجو ، إنها « مليارات » تتلاقح وتتكاثر ، وتمر أجنتها بمراحل مكتوبة محسوبة ، فما تنخرم سُنَّة ، ولايضطرب نظام « الله يعلم ما تحمل كل أنثى » فى الأجواء أو الغابات أو الجحور أو الأسرة « وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »[1]

وفاعل هذا كله هو الذى رفع السموات ، مايشغله شأن عن شأن ، ورصّعها بالنجوم فما يسقط من مكانه أو يزلّ عن مداره نجم ! .

وهناك حفظة للإنسان تحميه الغوائل العارضة بالليل والنهار ، ترى هل عناصر المناعة التى تدافع الجراثيم الغازية من آثار هذه النعمة ؟ إن هذه الحفظة من أوامر الله على كل حال . .

وتمضى سورة الرعد فى شرح مظاهر القدرة ، وسابغ الفضل على نحو لامثيل له فى كتاب مضى أو بقى ، ثم ترسل هذه الأسئلة مشفوعة بأجوبتها الفريدة « قل : من ربّ السموات والأرض ؟ قل الله ! قل أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار »[2] .

إن هذه السورة بدأت بالحديث عن الكون ودلالاته على الله سبحانه، ثم أفاضت فى موقف الإنسان من القرآن الذى شرح هذه الدلالات ونبه إليها .

وقد رأيت أن أؤخر الكلام عن الكون ، وأبتدئ بالقرآن ، لأنى راغب فى إطالة الحديث عن الكون ، فالمسلمون يعيشون غرباء فيه ، وهم أبعد الناس عن علومه ، ومايخدم القرآن بشىء كما يخدم بدراسة العالم وما فيه . . !!

قلت فى نفسى لو أنى على بعد مائة ميل من كوكب الأرض فماذا أرى وماذا اسمع ؟؟ .

هل أرى سحب الأدخنة والأتربة التى لوثت الجو وعكرت صفاءه ؟ .

هل أسمع عاصفة الضوضاء التى تنبعث من المركبات والمصانع والتى غطّى ضجيجها كل شىء ؟ أعرف أن هذا الكوكب أجلا مسمّى ، فهل هو يستعجله ويسعى إلى حتفه بظلفه ؟ .

---

(١) الرعد : ٨ ، ٩ (٢) الرعد : ١٦

ثم ماذا نحن فى هذا الكون الكبير ؟ قرأت أن علماء الفلك اكتشفوا مايعتقدون أنه ثقب أسود فى مجرّة نائية أكبر مائة مرة من أى ثقب أسود تمّ اكتشافه من قبل ! .

وذكر راديو صوت أمريكا أن العلماء يعتقدون أن هذا الثقب الهائل يضمُّ ألف مليون نجم ! وأن تجمُّع النجوم والمواد الأخرى فيه يشكل مركزا كثيفا للجاذبية ، يبلغ من القوة أنه لايفلت منه شىء حتى الضوء . . . ! .

قلت : إذا كان هذا ثقبا فى جانب من الكون فما يكون الكون نفسه ؟ يبدو أن ما بين السموات والأرض أعجَب منها . . ! .

وانفتح أمامى أفق عريض عامر بالدلائل على عظمة الله وعلو شأنه : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون »(١) .

قد أرى حولى جماهير من الناس ، وقد أرى محيط الأرض وأنا داخل قمر صناعى .

لكن القصة ليست رؤية إنسان من بين مليارات الأناسىّ ، إن هذا الإنسان وحده كون صغير! على جلده مائة ألف شجرة - أعنى مائة ألف شعرة - تنمو وتنقصف : ليعود مكانها مثلها ! .

لعلّ الشعر أهون ما فى الإنسان ، فلننظر إلى ألوف مؤلفة من كرات الدم تسبح فى عروقه ، إنها كرات متجدِّدة ، لها مصانع تنشئها وترسلها حسب الحاجة .

ولننظر إلى شبكة الأعصاب المنتشرة فى الجسم ، إنها تتلقّى الأوامر ليلا ونهارًا من المخّ الذى عجز البشر عن معرفة تلافيفه المعقدة ، ووظائفها الخطيرة .

من فجر الإنسانية إلى الآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يدبر ربُّنا شئون هذه الأجساد ، ومايعرض لها من بؤس ونعمى « وأن إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيى . . »(٢) !!

إن الكون كبير كما كشف العلم ، ولكن الله أكبر كما يجب أن يشعر العلماء .

فى مجتمعاتنا - نحن البشر - نرى الساسة الكبار مثلا مشغولين بالأمور الكبيرة غافلين عن الصغائر ، لكن رب العالمين لايشغله شأن عن شأن ، فهو يسمع مُؤاء هِرة معذبة ، ويدخل مَنْ عذبها النار ، كما يسمع دعاء جماهير بائسة ويجزى الظالمين بما كانوا يعملون .

إنه يسمع سقوط ورقة من شجرة ، ويرى تجلّط الدم فى عرق ، كما يرى ويسمع قصف الرعد فى السماء ، وأفول نجم فى الفضاء ! « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشة ، ومداد كلماته » .

---

(١) الرعد : ٢ (٢) النجم : ٤٢ ، ٤٤

سورة إبراهيم

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض »[1] .

فى الحياة الدنيا ظلمات كثيرة ، ظلمة الجهل ، وظلمة الغرور ، وظلمة الإثم ، وظلمة العصيان . وقد أنزل الله كتابه على محمد خاتم الأنبياء ليخرج الناس من هذه الظلمات كلها ، وليعلمهم أن هذه الحياة الدنيا مرحلة إلى مابعدها ، وأن الذين يستحبّون الدنيا على الآخرة ضالون ، وأن الذين يقاومون الوحى ويكرهون العيش فى مناره جائرون مُعْوجُّون .

ومن قبل محمد أرسل الله موسى لينقذ قومه من ظلمات الذل والعبودية ، ويمنّ عليهم بالحرية المطلقة ، حرية العقل والضمير والحركة والمرح فى نعمة الله !! .

وكل ما طلبه منهم أن يذكروا هذا الفضل ، ويعرفوا حق صاحبه « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »[2] .

والأديان كلها نُقْلَةٌ من الجهل إلى العلم ، ومن العوج إلى الاستقامة ، والكتاب الذى اختُصَّ به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ملىء بحُزَم من الأشعة التى تمحو العمى ، وتهدى الطريق ، وتقود إلى الله ـ سبحانه ـ وتعصم من الوقوع فى ضروب الجاهليات كلها .

ولكن البشر ـ على امتداد العصور ـ يخاصمون الوحى ، ويكابرون المرسلين ، ويحاولون البطش بهم ، ويستغلون ما أوتوا من قوة لفتنة المؤمنين عن الحق ،لكن المؤمنين يصمدون ويتحملون «ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هـدانا سبلنـا ولنصبرن علـى ما آذيتمـونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون»[3] .

وإخراج أمةٍ مَّا من الظلمة إلى النور لايتم بين عشيةوضحاها ، إنه يحتاج إلى زمان طويل، وقد مكث نبينا ثلاثا وعشرين سنة يتعهد العرب بالقرآن الكريم حتى محا بداوتهم وجهالتهم وتخلّفهم العلمى والحضارى ، وأمسوا أهلا لصدارة العالم وقيادته .

إن القرآن نقلهم نقلة فسيحة : ثقافيا وسياسيا وعقليا وخلقيا ، فلما اشتبكوا مع أعداء الله رجحت كفتهم عن جدارة ، واستحقوا التمكين فى الأرض .

---

(١) إبراهيم : ١ ، ٢ (٢) إبراهيم : ٥ (٣) إبراهيم : ١٢

وتلمح هذه المعانى فى قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُنَّ فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد »[1] .

إن الأمم المغلوبة على أمرها ، المحجوبة بخواصّها عن السيادة والصدارة لاتبلغ القمة ، وهى واهنة الإرادة مختلطة القصد ! لابد أن يغيِّر الإيمان أحوالها ويزوِّدها بطاقات جديدة من اليقين والتجرُّد والجراءة ، حتى تستطيع أن تقهر خصومها ، وتضع على الأرض طابعا جديدا من العبودية لله ، والازدراء لشهوات الدنيا .

عندئذ يحكم الله بزوال دول وإقامة أخرى « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد »[2] .

فلتفقه هذا الدرس أمتنا الإسلامية التى لاتريد أن تغيِّر نفسها !! .

ومن قديم والمجتمع البشرىّ طبقات أو درجات ! هناك السادة والعبيد ، أو الرؤساء والأتباع ، أو القادة والجماهير ، أو أصحاب المواهب المادية والأدبية والمُعْجَبون بهم ، المقلِّدون لهم السائرون وراءهم .

وبين الفريقين قاسم مشترك أو هدف واحد ، والذين يحبّون كاتبا من الكتاب يغلب أن تكون فى نفوسهم الأفكار التى يترجم المؤلف عنها . . الفارق أنها مستخفية فى ضمائرهم ، وأن الكاتب أحسن صياغتها .

ويطَّرد هذا الشبه فى ميادين شتى بين الرؤساء والأتباع ، أو القادة والمعجبين .

وقد لاحظت أنه فى موقعة « بدر » أحاط المشركون بأبى جهل زعيم الكفر وهم يقولون : أبو الحكم لايُخْلَص إليه !! فكان بينهم كأنه فى غابة من الرماح ، ولكن أشبال الصحابة أجهزوا عليه!! .

والغريب أن الكفار سوف يلجأون إلى هذه الرابطة فى الدار الآخرة ، ولكنها لاتغنى عنهم شيئا « وبرزوا لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنّا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص»[3]!

وقد شرح الله هذه الحقائق للناس فى يومهم القريب ، حتى لاينخدع رئيس بتابع ، ولاتابع برئيس ، ومع ذلك فإن نفرا من الرؤساء المغرورين خدعوا الجماهير ، واستغلوا ثقتهم فجرُّوهم إلى

---

(١) إبراهيم : ١٣ ، ١٤ (٢) إبراهيم : ١٥ (٣) إبراهيم : ٢١

الهلاك « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار»[1] .

إن المصير واحد للأئمة الذين يَدْعون إلى النار والأغرار الذين يستجيبون لهم . . !

وتشبه سورة إبراهيم سورة الرعد فى شرحها لطبيعة الحق ! فإن الحق ينفع الناس إلى جانب صدقه العقلىّ ، أما الباطل فمجلبة للمتاعب والآلام ! .

فى سورة الرعد يقول ـ جل شأنه ـ : « كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض »[2] .

وفى سورة إبراهيم يقول ـ جل شأنه ـ : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . . . »[3]

وتتفاوت الأمم بجملة الحقائق التى تستند إليها وتحيا بها ، فإن هناك حقائق عقائدية وأخلاقية وعمرانية وحضارية .

والمفروض أن كلمة التوحيد جذْر شجرة كثيرة الفروع ، طيبة الثمر ، غزيرته ! وأنها تثمر حضارة يانعة لمن عرفها ، واستنار بها ، واستظل بأفنانها الكثيرة .

أما الباطل ـ فلأنه لا أصل له ـ لا ينتج إلا القوارح والهزائم « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّتْ من فوق الأرض مالها من قرار »[4] .

فهل نتفيأ ظلال الحق ؟ أم نجنح إلى غيره فلا نفيد إلا السراب ؟! .

وتتحدث سورة إبراهيم عن ناحيتين يجب أن تتوفرا للأمة المؤمنة :

الأولى : انشغال الأمة بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أكثر من انشغال الأمم القومية بشئونها الخاصة ، فالأمة صاحبة الرسالة الإلّهية تستغل تمكينها فى الأرض لإعلاء كلمة الله ، ومواصلة ذكره وتمجيده : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلال »[5] .

وتاريخ النبوات كلها يشير إلى أن الدول التى يقيمونها تهتف لله لا للبشر ، وتجعل صلتها بالسماء أساس نشاطها الدءوب .

ومع شحوب التعاليم السماوية أو غروبها ترى الأمم مستغرقة فى الطعام والتمتع والمكاثرة

---

(١) إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩ — (٢) الرعد : ١٧ — (٣) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥
(٤) إبراهيم : ٢٦ — (٥) إبراهيم : ٣١

والمفاخرة ، فإذا بكت على شىء فعلى هبوط مستواها الاقتصادى ، وقلة المواد التى تستهلكها فى ملذاتها .

والعالم اليوم محتاج إلى أمة تضرب المثل من نفسها فى عبادة الله ، والحديث عن أمجاده ووصاياه، وتلك هى الأمة الإسلامية . .

على أن هذه الأمة المسبِّحة بحمد الله يجب أن تكون مالكة لزمان الأرض ، سيدة على مرافق الحياة المختلفة .

وهنا تجىء الناحية الثانية ، وهى ناحية توضح أن أهل الإيمان ملاّك لاعالة ، وأن بأيديهم قياد الدنيا يصرفونه كيف شاءوا .

ويتضح هذا من الآيات الثلاث الآتية ، والتى تكررت فيها كلمة (لكم) خمس مرات !! « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. **وسخر لكم** الشمس والقمر دائبين **وسخر لكم** الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . . . »[1] .

إن هناك مؤمنين شردوا عن الصراط المستقيم ، وتجمدت مواهبهم ، وعاشوا غرباء فوق أرض سخرت لهم ، فسُخِّروا فيها ، وبدل أن ينصروا الله بما آتاهم ارتعشت أصابعهم ، ونكصت أعقابهم، فتقدم أعداء الله إلى الزمام الخالى فامتلكوه ، وسخروا الدنيا لكفرهم ، وأحرجوا الإيمان فى مواطنه فما يكاد يبين .

والجهاد فى عصرنا : سيادة فى البر والبحر والجوّ ، وعلم بالكون يرتفق الأرض والسماء وما بينهما . فما هو حظّ المسلمين من ذلك كله ؟ .

إن الأسى يقهرنى عندما أجد أننا لم نصنع طيارة تخترق الفضاء ، ولاغواصة تمخر العباب ، ولادبابات يتحرك بها الحديد على الأرض ، ليدعم الحق وينصر المظلومين .

على حين مهر اليهود فى هذه الفنون ، وانطلقوا هنا وهناك وكأنهم جنّ سليمان ! .

والفارق أن جن سليمان كانوا فى قبضة رجل مؤمن يسخر قوته لله ، أما يهود اليوم فإنهم جاءوا لخلع جذور العروبة والإسلام ، وبناء سلطان للطغيان والتمرد على الله . . .

ما أوسع التفاوت بين ذرية إبراهيم ، فيهم من ذهب بنفسه وتبع هواه وكفر بعيسى ومحمد جميعا ، وهؤلاء الآن معهم القوة ! .

---

(١) إبراهيم : ٣٢-٣٤

ومنهم من ورث الوحى ولم يحسن الوصاية عليه ، فعاش خاملا مسيئا وهم عرب هذه الأيام العجاف ! .

كان إبراهيم صالحًا مصلحا ، جاب الآفاق داعيا إلى التوحيد ، ومعلنا حربا شعواء على الأوثان .

ثم جاء إلى الحجاز وهو يدعو : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (١) .

وهذا الفرع من ذرية إبراهيم هو إسماعيل من زوجته هاجر .

أما الفرع الآخر فهو إسحاق أبو اسرائيل من زوجته سارة ، وقد رزق إبراهيم بهما على الكبر ، ولذلك يقول : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء » (٢) .

والغريب أن اليهود يرون أنفسهم أبناء السيدة الحرة ، أما العرب فهم دونهم ، لأنهم أبناء أمة !

وهذا فكر هابط ، فبنو آدم سواء ، لايختلفون إلا بالتقوى ، وإذا كان لإبراهيم ميراث فهو لولده جميعا ، ورب العالمين أعز وأجل من أن يُقْطِعَ أبناءَ يعقوب أرضا يتوارثونها إلى قيام الساعة «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (٣) .

وفى المعركة الأزلية بين الحق والباطل سيشعر بالضيم مستضعفون ومهزومون ، وسيقولون لقاهريهم : « . . . ولنصبرنّ على ما آذيتمونا » (٤) والظلم مرتعه وخيم .

وقد يعجل الله بعقوبته فى الدنيا ، ومهما تخلّف الجزاء فالقصاص حق : «ولا تحسبّن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » (٥) .

وقد تبين لنا من استقراء التاريخ أن كيد الكافرين شديد ، وأن مكرهم سيئ ، وأن الخطط التى يرسمونها لضرب الحق خبيثة ماهرة !! على أن ذلك كله لن يغير النتائج المقدورة : « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . . . » (٦) .

لقد بدأت سورة إبراهيم ببلاغ للناس أن اللهأنزل الكتاب على نبيه الخاتم ليخرجهم من

---

(١) إبراهيم : ٣٧ (٢) إبراهيم : ٣٩ ، ٤٠ (٣) الأعراف : ١٢٨
(٤) إبراهيم : ١٢ (٥) إبراهيم : ٤٢ (٦) إبراهيم : ٤٦ ، ٤٧

الظلمات إلى النور ، وها هى ذى السورة تختم ببلاغ مؤكد حاسم « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إلّه واحد وليذكر أولو الألباب »[1] .

على أولى الألباب أن يحترموا عقولهم فلا يعبدوا الأوهام ويسجدوا للأصنام ، وعليهم أن يتدبروا الوحى الإلَهى ، ويتشبثوا بالحق الذى يضىء لهم الطريق ، ويوضح الغاية ، ويهدى إلى الرشد .

(١) إبراهيم : ٥٢

سُورَةُ الحِجْر

« الر تلك آيات الكتـاب وقرآن مبين »[1] الوحى الأعلى من حيث هو كلمات مسطورة : كتاب ، ومن حيث هو آيات متلُوَّة : قرآن .

وكلا اللفظين كتاب وقرآن عَلَمٌ على مافى المصحف الشريف .

« ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين »[2] وربما يود الذين قصّروا لو كانوا مجدِّين ، وربما يود الذين عصوا لو كانوا مطيعين ، وعندما تنكشف الخدعة الكبرى يندم الذين أضاعوا أيامهم سدى ، ولم يستعدوا للمستقبل الباقى « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون»[3] .

عبادة الدنيا والاستغراق فى مُتَعها شأن الناس من قديم ، ولكنها عبادة اجتاحت الناس فى هذا العصر حتى لتكاد الآخرة تكون وهما .

وفى مواجهـة ذلك يقـول الله لنبيه : « لاتمـدّن عينيك إلى ما متعـنا به أزواجا منهم ولاتحزن عليهم . . . »[4] .

وقد لاحظنا أن آخر هذه السورة يؤكد أولها ويتجاوب معه ، فعندما يتحدّى عبيد الحياة أنبياءهم ، ويعترضون طريقهم ، ويظنون الدولة خالدة لهـم ، يجىء فى أول السـورة قوله تعـالى : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ماتسبق من أمة أجلها ومايستأخرون »[5] وهذا قول موجز تفسره أواخر السورة عندما تقصّ كيف هلك قوم لوط ، وقوم شعيب ، وقوم صالح !! .

إن الإناء يستقبل الأخطاء حتى إذا طفح بدأ العقاب ، وربما فعل المجرمون الفعلة التى يجىء بعدها الهلاك .

يقول الله تعالى فى وصف قوم لوط وهم يريدون الفسق بضيوفه : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون . فأخـذتهم الصيحة مشـرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجـيل ، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين »[6] : المتأملين فى الأسباب والنتائج ـ « وإنها لبسبيل

---

(١) الحجر : ١ (٢) الحجر : ٢ (٣) الحجر : ٣

(٤) الحجر : ٨٨ (٥) الحجر : ٤ ، ٥ (٦) الحجر : ٧٢ـ٧٥

مقيم »[1] أى أن القرية الهالكة فى طريقهم وهم يغدون ويروحون !!.

ويقول جل شأنه فى قوم شعيب : « وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين »[2] : طريق واضح .

ويقول فى أصحاب الحجر ـ وبهم سميت السورة ـ : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين . فأخذتهم الصحية مصبحين . فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون »[3] .

وأصحاب الحجر هم ثمود ، ويسمى العرب أرضهم بمدائن صالح . وهم يمرّون عليها ليلا ونهارا ، فهلا اتعظوا !!.

إن هذا كله تفصيل لما ورد أول السورة عن القرى الهالكة : « ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . . »[4] .

وقد كان عرب الجاهلية يستهزئون بالقرآن وبمن نزل عليه « وقالوا : يا أيها الذى نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون . لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين »[5] والجاهليون ليسوا بدْعاً فى طلب نزول الملائكة ، فقد سبقهم قوم نوح وهود وصالح ، ولكن الله لايستجيب لعبث أولئك الذين يستكثرون الرسالة على بشر منهم !.

إنهم أدعياء يكرهون الفضل فى غيرهم ، ويحسبون الأمر مسابقة فى الصدارة ينجح فيها الأكثر صفاقة ! « مانتزل الملائكة إلا بالحق وماكانوا إذاً منظرين »[6] . وينبه سبحانه إلى أن هذا الوحى الخاتم خالد مادامت السموات والأرض ، وأن أعداء الحقيقة مهما بلغت ضراوتهم لن يطمسوا أنواره « إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون »[7] ويقول جل شأنه ممتنا على رسوله بهذا القرآن : «ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم »[8].

وكُفْر بعض الناس بالكتاب الكريم ليس لقصور به ، إنه لتعصب فيهم وعناد ! ولوسيقت إليهم المعجزات كلها ما ازدادوا إلا جحودا « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »[9] والأدلة مهما قويت لاتجدى مع هؤلاء . . .

وفى أول سورة الحجر وآخرها حديث شائق عن الكون وأسراره وقواه الدالّة على صاحبه !.

إذا نظر المرء إلى أعلى لم ينقض عجبه من شروق الأفلاك وغروبها فى فضائها المديد إلى

---

(١) الحجر : ٧٦
(٢) الحجر : ٧٨ ، ٧٩
(٣) الحجر : ٨٠ـ ٨٤
(٤) الحجر : ١٠ ، ١١
(٥) الحجر : ٦ ، ٧
(٦) الحجر : ٨
(٧) الحجر : ٩
(٨) الحجر : ٨٧
(٩) الحجر : ١٤ ، ١٥

غير نهاية ! وإذا نظر إلى الأرض وما أودع فى برها وبحرها من بركات عجب كيف ضمن الله الرزق لكائنات لاحصر لها ، وردَّد مع الرسول الكريم قوله : « اللهم لك الحمد أنت قيِّم السموات والأرض ومن فيهن » .

يقول تعالى : «ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين »[1] .

لقد فصل أول السورة بركات الكون وخيراته وعجائبه ، ولكنه أجمل فى آخر السورة وأوجز عندما قال : « وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم »[2] .

لقد ثبت أن عناصر الجسم البشرى هى عناصر هذه التربة الأرضية ، فكيف يتحول اللحم والعظم إلى تراب ؟ ثم كيف يتحول التراب مرة أخرى إلى لحم وعظم ؟ .

هل الخصيتان هما اللتان تهندسان خصائص الوراثة ؟ وتحملان الطبائع المادية والمعنوية للإنسان ؟ .

هل هذه الدريهمات من اللحم تصنع قَدَرَ الإنسان ؟ إنها غُدَدٌ عبقريَّة .

إذن ، إنها ـ عند النظر الصائب ـ غطاء للقدرة العليا يخترقه العقل السليم فيرى أن الله وحده هو المحيى المميت ، وأنه بحكمته وإبداعه خالق كل شىء « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، ومانتزله إلا بقدر معلوم »[3] .

العلم الإلهى صفحة واحدة ، يقترب فيها الأزل من الأبد ، والأرض من السموات ، والدقيق من الجليل ، وعالم الحشرات والجراثيم بعالم الإنس والجن والطير !! .

كنت فى الطائرة فرمقت قطعة من الصحراء خيِّل إلىّ أنها تصلح للزراعة ، فتساءلت : أتزرع هذه غدا ؟ ثم أجبت نفسى : إن كانت ستزرع فإن الله وحده يعلم أيّان يجيئها المطر ، ويلتفّ حولها البشر ، ويلتقطون منها الثمر « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم »[4]

إننى أتابع برامج عالم الحيوان وعالم البحار ، وأعجب كيف تتكاثر الأحياء وكيف تتفانى ، وكيف يجعل الله طعام طير سارح من دودة ملصقة بظهر حيوان ضخم يستريح حين يأكلها هذا الطير !! .

---

(١) الحجر : ١٦ ـ ٢٠ (٢) الحجر : ٨٥ ، ٨٦ (٣) الحجر : ٢١ (٤) الحجر : ٢٤ ، ٢٥

وعالم الإنسان نفسه مثار تفكير عميق ، لقد خلق من طينة مُنْتِنَةٍ « من صلصال من حمأ مسنون»[1]

وعندما يعود إلى التراب بعد انقضاء رحلة العمر ويُدفن تحته تكون رائحته أشد إزعاجا .

كأن الناس يتدافنون حتى لايشمئزَّ بعضهم من بعض ! .

بم زكا الإنسان وسما ؟ بم كُرِّم ونعِّم ؟ بهذه اللطيفة الربانية التى نفخت فيه ، والتى طالما جار عليها وضاق بأوْجها !! .

إن فى الإنسان قبسا من نور الله الأسنى حسده عليه إبليس ، وكره الاعتراف به ، وقرر الانتقام من آدم وبنيه : « قال ربِّ بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علىّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين »[2] .

وقد تكررت قصة آدم وعدوِّه فى القرآن الكريم ، وتميزت القصة هنا بتكرار المعدن الذى نشأ منه آدم ، وأنه صلصال من حمأ مسنون ، أى : طين متغير الرائحة ! .

إنه مسكن مؤقت على أية حال ، أوجسْر يعبر عليه الإنسان إلى مصيره الباقى وفق ماقدَّم من عمل فى فترة الحياة الأولى .

والمخدوع من نسى ربَّه ومبدأه ومعاده .

وإبليس ليس له سلطان على بشر ، والقانون ـ كما قيل ـ لايحمى المغفلين ! إن الشيطان لا يملك إلا الإغواء والخداع ! وتزيين السمّ للآكلين ، فمن الملوم بعد التحذير المستمر ؟ .

على أبناء آدم اليقظة والانتباه والشعور بأن الله عندما يرضى يغفر الهنات ، ويرفع الدرجات ، وعندما يغضب لاينجو من بطشه أحد « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم »[3] .

ثم أعقب هذا الوعد والوعيد نبأ إبراهيم مع ضيوفه ، ومَنْ ضيوف إبراهيم ؟ إنهم الملائكة الذين جاءوا يبشرونه بغلام عليم ، ويبشرونه فى الوقت نفسه بهلاك المدينة التى كانت تفعل المنكر !! .

ولم يتعرض القرآن بالنفى للخرافة التى أوردها العهد القديم بأن الله تغذَّى أو تعشَّى فى حفل أقامه له إبراهيم ! وكان على المائدة عجل سمين ! إن الله لا يأكل ! .

والسكوت عن هذه القصة أبلغ فى ردها من إيرادها ثم تكذيبها . . ويكفى ما امتلأ القرآن به من آيات التسبيح والتحميد . .

---

(١) الحجر : ٢٦ (٢) الحجر : ٣٩ـ٤٢ (٣) الحجر : ٤٩ ، ٥٠

أما قوم لوط فقد كانوا أهل سوء ودنس ، وقد عانى لوط فى تحذيرهم ، وفشل فى تطهيرهم ، فدمَّر الله مدينتهم وجعل عاليها سافلها .

واللواط مرض يظهر مع الإسراف الجنسى والحرمان الجنسى على سواء ، وقد كان أصحابه يتوارَوْن به استخذاء ، حتى جاء الأوربيون والأمريكون ، فأقروه ، ثم شرعوه !! .

وكم من جماح شهوانى أقرته هذه الحضارة ؟ ولكن العقاب الإلهى بالمرصاد . . .

أشرنا إلى الروابط التى تصل بين أول السورة وآخرها ، وقد فصلَتْ بينهما هذه القصص المسوقة للعظة والعبرة ، ثم قيل للرسول الكريم : إن الله شرفك بهذا الوحى ، فأدِّبْ الأمم به : « لاتمدَّن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم ولا تحزنْ عليهم واخفض جناحك للمؤمنين . وقل : إنى أنا النذير المبين »[1] .

والذى نراه أن المقتسمين هم أهل الكتاب الأولون الذين جعلوا القرآن أقساما يصدقون بعضها ويكذبون بعضها ، فقال تعالى : « كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين »[2] .

أى : أعضاء أو أجزاء مقطعة يقبلون منها مايشتهون ، ويرفضون مايكرهون .

والمعنى العام : أن الله خص المسلمين بالوحى الخاتم المهيمن على ما قبله ، كما منح أهل الكتاب الوحى السابق ، فغيّروا وبدّلوا : « فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون »[3] .

ثم بشر الله نبيه بأن رجال الوثنية الذين يقاومون رسالته لن يطول بهم أمد حتى يصرَّعوا جميعا . «إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلَها آخر فسوف يعلمون »[4] !! .

وقد كان أهل مكة قد أعلنوا حربا من السخرية والاستهزاء على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى ما ينزل عليه من وحى ، ونشروا سخريتهم وتُهمهم على نطاق واسع ، ورصدوا الوفود القادمة إلى مكة كى يحذروها من اتباع الرسول ، والانخداع بما يقول .

وطبيعى أن يتألم النبى من هذه الحملات الجائرة ، ولكن الله أمره ألا يلقى إليها بالا ، وألا يحزن لتهافت المشركين عليها . « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »[5] .

وقد صدق الله وعده فارتفع لواء الإيمان ، وذهب الشرك وأتباعه فى خبر كان .

---

(١) الحجر : ٨٨ ، ٨٩ (٢) الحجر : ٩٠ ، ٩١ (٣) الحجر : ٩٢ ، ٩٣
(٤) الحجر : ٩٥ ، ٩٦ (٥) الحجر : ٩٧ـ٩٩

سُورَةُ النَّحْل

ظاهر أن سورة النحل نزلت فى أخريات العهد المكى بعدما احتدم العراك بين المشركين والمؤمنين ، وطال الأمد ولم يظفر الإيمان بنصر يشدّ أزره ، ولم ينزل بالشرك حدث يقصم ظهره !! .

وكأن المشركين يقولون للمؤمنين : أين ماتوعدوننا به وتنتظرون وقوعه ؟ فكان الجواب : كل آت قريب ، إن غدا لنظاره قريب : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه . . . » [١] .

ومايتحقق وقوعه يمكن الجزم به ، وقد انتهى الصراع بين الحق والباطل بهزيمة أخرست الوثنيين وأخضعت أعناقهم . . ! واحتاج ذلك إلى أجل يعدّه المجرمون طويلا ، ويعدّه القدر قصيرا ! .

وفى هذا الأجل يجب على المسلمين أن يصبروا دون ارتياب ، ولذلك يقول الله فى آخر السورة لنبيّه : « واصبر وما صبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » [٢] .

وقد صابر المسلمون الأيام ، وعندما حزّت فى جلودهم الآلام نزلت آيتان فى هذه السورة تعزّيان المسلمين ، وتُصبّرانهم على مانزل بهم .

الأولى قوله تعالى : « والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » [٣] .

والثانية قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم » [٤] .

والهجرة المقصودة هنا هى الهجرة إلى الحبشة . . وقد أذن فيها للمستضعفين ومن لاطاقة لهم على التعذيب ، وقد روى البخارى حديثا فى هذا الموضوع نسوقه هنا قال : إن أسماء بنت عميس وهى ممن قدم من أرض الحبشة ـ إلى المدينة ـ دخلت على حفصة ، فدخل عمر عليهما ، فقال لأسماء : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحقّ برسول الله منكم ! فغضبت أسماء فقالت : كلا والله ،

---

(١) النحل : ١ (٢) النحل : ١٢٧ ، ١٢٨ (٣) النحل : ٤١

(٤) النحل : ١١٠

كنتم مع النبى يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم ، وكنا فى أرض البعداء البغضاء بالحبشة ، كنا نؤذى ونُخاف ، وذلك فى الله ورسوله ! .

وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ! فلما جاء النبىّ بيت حفصة قالت أسماء : يارسول الله ، إن عمر قال كذا وكذا . .

قال : فما قلتِ له ؟ قالت : قلت له كذا وكذا . . قال رسول الله : ليس بأحق بى منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم ـ أنتم أهل السفينة ـ هجرتان » !! .

وفى مطلع هذه السورة سمَّى الله الوحى روحا ، لأنه يحيى الأفراد والأمم « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » [١] ويقول جل شأنه فى مكان آخر : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . . . »[٢] .

والروح النازل على العرب فى تضاعيف هذا القرآن خلق منهم كيانا جديدا رشحهم لقيادة العالمين بجدارة بعدما كانوا صفرا . . !

والسياق فى هذه السورة ينشعب شعبتين : أولاهما تتحدث عن الوحى الذى تنزلت به الملائكة ، والأخرى تتحدث عن آيات الله فى كونه ، وآلائه على عباده .

وتتبادل الشعبتان المواقف فى عظة الناس ، وتعريفهم بربهم .

ولننظر إلى الشعبة الأولى ، ماذا يقول الناس بعدما سمعوا الآية الكريمة : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » [٣] .

إنهم فريقان متباعدان : الفريق الأول ضال مضل « وإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم قالوا : أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم . . » [٤] هذا الفريق هم رؤساء الضلال وقادة الزيغ ، ووزرهم مضاعف ، فقد أضلوا أنفسهم ، وتسببوا فى إضلال غيرهم ، وفى الحديث : « من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا » [٥] .

إن الرجل يؤلف الكتاب يودعه من الأغاليط والترّهات الشىء الكثير ، ويحسب أن جريمته انتهت بصدور الكتاب .

وما درى أن له رصيدا مفتوحا إلى قيام الساعة ، يضيف إلى جريمته جرم كل من انخدع به . . نعم إنه يحمل من أوزار الأتباع قسطا .

---

(١) النحل : ٢ (٢) الشورى : ٥٢ (٣) النحل : ٢

(٤) النحل : ٢٤ ، ٢٥

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه ، وأبو داود والنسائى ، والترمذى وابن ماجة ، والإمام : أحمد : عن أبى هريرة.

أما الأتباع أنفسهم فهم محاسبون على غفلتهم وتسليمهم الأعمى ، وكان يجب أن يكونوا نقدة أذكياء . . وألايساقوا كالأنعام ! ! .

« قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين . الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . . »(١) .

ذاك حديث الفريق الأول ، أما الفريق الثانى فإن السؤال نفسه يوجَّه إليهم ، بيد أنهم أذكياء مهرة يحسنون الإجابة : « وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا خيرا ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين »(٢) .

هذا كلام فقيه فى القرآن ، يعلم أن العاقبة الحسنة للمتقين فى الدنيا والآخرة ، ولكن من هم المتقون ؟ « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون : سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون »(٣) .

والوصف كما ترى لأناس قضوا أعمارهم فى الصالحات ، وطابت أرواحهم ، بعدما جاءهم الأجل وهم مثابرون على فعل الخيرات ، وترك المنكرات . . .

والثمر ينضج فى مَنابتِهِ ويَطيب بعد فترة يقضيها بين الماء والضوء ، تتم فيها حلاوته ، كذلك يرشح المؤمنون لدخول الجنة .

وفكرة المسلمين عن الطيبة والصلاح تحتاج إلى تقويم ! يجب أن يعرفوا أن التقوى استواء مواهب ونضج خصائص . . .

وندع الحديث عن الوحى بين منكريه ومقرِّيه لنعود إلى حديث آخر عن الكون ، وكيف مهّد الله طرائقه ، ويسَّر مرافقه لبنى آدم « خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين »(٤)

وعجيب أن يتحول الإنسان المعروف النشأة العاجز الطفولة إلى عدو لله الذى خلقه فسوّاه ، وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة . . ! ! « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون »(٥) .

والصورة التى ذكرها القرآن فى ترفيه الإنسان ليست صورة « أفندى » جالس على مكتبه يصدر الأوامر ، وإنما هى صورة فلاح يذهب إلى الحقل تتبعه ماشيته ، ثم يعود ، وهو لها مالك ، وبها مزدان ، ولها مسخّر . . إن هذا متاع عظيم .

---

(١) النحل : ٢٧ ، ٢٨ (٢) النحل : ٣٠ (٣) النحل ٣٢
(٤) النحل : ٣ ، ٤ (٥) النحل : ٥ ، ٦

ثم يطَّرد إحصاء الأفضال الإلٓهية « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »[1] كيف ينزل الماء على الثرى ، فإذا الحبوب أنواع ، والأزهار ألوان ، والطعوم شتى ، للأنعام حظها ، وللبشر حظوظهم ، والأرض واحدة ، والماء واحد ، وترى هنا غابات ملتفة ، وترى هناك سهولاً فيحاء . من صنع هذا كله ؟! .

« وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[2] إن الأرض التى تعيش جماهيرنا على أديمها ، وتلتقط منها رزقها ليست فى الفضاء الكونى إلا ذرة صغيرة تنتظم فى عقد مبهم من كواكب لاحصر لها .

إنها تبنةٌ مُلقاة فى سكة التبَّانة ، أو رملة مطمورة فى صحراء هائلة ، أو قطرة فى بحر متلاطم الموج !! .

إن الكون كبير جدًّا ، ولكن خالقه أكبر جدًّا ، ومع ذلك فمن البشر من يجهل هذا الخالق ، وقد يتصوره قطعة حجر أو قطعة خشب ، ما أشد الغباء !! .

« أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ماتسرّون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء ومايشعرون أيان يبعثون »[3] .

وسورة النحل تسمَّى سورة النعم ؛ لكثرة ما وصف الله فيها أنعمه على عباده ، طالبا منهم أن يذكروه ويشكروه .

وقد قلنا أول السورة : إن دلالة الكون الصامتة تقارنها دلالة القرآن الناطقة .

وأنهما تتبادلان المواقف فى تعريف الناس بربِّهم ، واقتيادهم إليه .

وقديما وحديثا كان ناس ينكرون الوحى ، ويتهمون رجاله بالكذب ، كانوا يعيشون فى الخلق الأول ، وينكرون قوله ـ جل شأنه ـ « كما بدأنا أول خلق نعيده »[4] لاشىء غير هذا العالم المعاصر إلا شىء يليه ! « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ، ولكن أكثر الناس لايعلمون »[5] .

والحقيقة أن فترة الاستمتاع بالعالم ومافيه تعقبها حياة أخرى أخلد وأخطر ، جاء المرسلون منبهين إليها على امتداد الزمان : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر

---

(١) النحل : ١٠ ، ١١ (٢) النحل : ١٢ (٣) النحل : ١٧ ـ ٢١

(٤) الأنبياء : ١٠٤ (٥) النحل : ٣٨

إن كنتم لاتعلمون . بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »[١] .

إن الماديين والوثنيين والعلمانيين لايؤمنون بوحى ، وقد توارث أهل مكة عبادة الأصنام ، فما تطوف بأذهانهم إلا أشباح هذه الدنيا .

فإذا سمعوا رجلا يحدثهم أنه يوحى إليه ، وأن العالم أوسع مما يتصورون أنكروه ، وثاروا عليه ، وقد أمرهم القرآن الكريم أن يتصلوا بأهل الكتاب ليشعروا بأن هناك وحيا ، وأن هناك مرسلين سابقين . .

والحديث عن أهل الكتاب ذو شجون ، فإن موسى حق ، وعيسى حق ! لكن أين مانزل عليهم وأمروا بتبليغه ؟ .

لقد ألّف القوم أحاديث من عند أنفسهم ونسبوها إلى الله ! هل يصدّق ذو عقل أن الله غار من آدم بعدما أكل من شجرة المعرفة ، وخاف أن يأكل من شجرة الخلد ، وينازعه السلطان ؟؟! من أجل ذلك طرده من الجنة ، وأهبطه إلى الأرض ؛ ليشقى فيها هو وأبناؤه !! .

هل يتصور ذو عقل أن الله قتل عيسى ابنه الوحيد ، أو تركه يُقتل ليكفر عن خطيئة آدم ، ويمكن العفو عنه ؟ .

إن أهل الكتاب يتدارسون أقاويل من عند أنفسهم ، ثم يزعمون أنها وحى نزل من السماء ، وأن من لم يصدقها لايقبل فى ملكوت السماء ! .

إن سؤال أهل الذكر الذى ورد فى هذه الآية كان ليعرف العرب الأوائل أن الوحى ممكن ، وأنه لاغرابة فى أن يحدّث رجل عن السماء ، أما ماعند القوم فيحتاج إلى تصحيح طويل !! .

والكتاب الذى نزل على محمد تضمن هذا التصحيح المطلوب ، ولذلك يقول الله فى شأنه «تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[٢] .

إنه تبيان للحق القديم الذى نزل فى الوحى الأول ، وإنقاذ لعقول البشر !! .

ومحمد ـ فى الحقيقة ـ هو الذى عقد الصلح بين الدين والعقل ، بين الإيمان بالغيب والإيمان بالشهادة ، بين مانزل من عند الله وما وصل إليه أولو الألباب . .

ولذلك جاءت الآية تحدّد عمله وسيرته « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون »[٣] .

---

(١) النحل : ٤٣ ، ٤٤ (٢) النحل : ٦٣ ، ٦٤ (٣) النحل : ٤٤

إن التفكير خاصة العقل الحيّ ، وسمة الإنسان الراشد ، وكل تدين ينبو عن منطق العقل ، ويرفض حقيقة الفطرة ، فهو لغو من عند الناس ، وليس وحيا من عند الله سبحانه . فى الوحى الإلّهى من قديم : « وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنماهو إله واحد فإياى فارهبون . وله مافى السموات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون ؟ »[(١)] .

وتعود سورةالنحل إلى تصنيف النعم التى أفاءها الله على الناس : « والله أنزل من السماء ماء فأحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون »[(٢)] بين ممات الأرض وحياتها ترتدّ الأرواث والفضلات التى أفرزتها البطون حبوبا وفواكه وثمرات بهيّة .

من صانع هذه النقائض المتباعدة ؟ إنه الله وحده « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين »[(٣)] هل صنعت البقرة الحلوب شيئا من هذا ؟ إن الكرش ومايضمّ ليس منبعا ينبجس منه هذا الحليب !! .

وهل تدرى الدجاجة وهى تضع بيضتها ما فعلت ؟ وكيف مزجت الزلال بالحديد بشتى الأغذية الأخرى ؟ .

إن الله صانع هذا كلّه ، ولكن بعض الناس يأكل ويكفر !! .

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »[(٤)] .

إن عسل النحل وضعت فيه كتب تصف آثاره وفوائده ! لقد استطاعت هذه الحشرة أن تستخلصه من الحقول والحدائق ، والتلال والحشائش ، وتجمعت زمرا بين شغالات وملكات لتقدمه بعد لأيٍ غذاءً ودواء للناس ، والناس يلتهمون ولايشكرون ! .

ثم شرعت الآيات تصف نعماً عامة تشمل الناس كلهم بين المهد واللحد : « والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا »[(٥)] .

إن الحياة غير العدم ، وإذا امتنّ الله على أحد بالوجود فليقدر هذا الفضل ، وليؤدّ الوظيفة التى خلق من أجلها .

كان من الممكن أن يكون ترابا يُداس ، أو دابة تركب ، فإذا خلقه الله فى أحسن تقويم فليقدر ذلك العطاء !! .

---

(١) النحل : ٥١ ، ٥٢ (٢) النحل : ٦٥ (٣) النحل : ٦٦

(٤) النحل : ٦٨ ، ٦٩ (٥) النحل : ٧٠

وقد فاوت الله بين الناس فى الأرزاق اختبارا للمكثر والمقلّ معا ، ولله أن يختبر عباده بما شاء ! ترى هل ذكر الغنىّ الفقير وواساه من الفضول التى اختص بها ؟ أم غلبته الأثرة وأوبقه الجحود؟ .

وقد جعل الله الزواج أسلوبا لبقاء النوع وامتداده مع اختلاف الليل والنهار ، فهل عرفت البشرية معنى الزواج وتحوُّل المرء به إلى أب وجدّ ؟ أم أنها عقَّدت تكوين الأسرة ، وفتحت مسارب للخنا ، وجعلت الزواج فى أحيان كثيرة قاصمة للظهر ؟؟ « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون »[1]؟ .

وأغرب ما فى حياة الناس أنهم يعبدون الوهم ويذلّون للباطل ، وبدلا من أن يعبدوا الله الذى أحسن إليهم وأعلى شأنهم يعبدون بشرا مثلهم ، أو حجرا دونهم ، أو أكذوبة لا رأس لها ولا ذنب « ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولايستطيعون . فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون »[2]!! .

إن الحساب الجامع لابدّ منه ، وسيمْثُل كل امرئ أمام ربه ليعرف ماقدم وما أخّر . . . وجمع الأولين والآخرين لايحتاج إلى وقت « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ، أوهو أقرب إن الله على كل شىء قدير »[3] .

ومضت سورة النعم تسرد مافى أعناق الناس من منن : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[4] .

ما أبعد البون بين طفل زنته أرطال وشاب جَلَدٍ زنته قناطير ، كيف نمت الأعضاء واكتنزت العضلات ؟ .

وكيف تحول العقل الطفل إلى عقل ذكىّ حافل بالتجارب والمشاعر ؟ تلك صناعة الخبير القدير ! .

إنه محيط بالبر والبحر والجو ، وهو جاعل الطير يحلّق منسابا من ذؤابة إلى ذؤابة « ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ، مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون »[5] .

إن إلْف الشىء يصرف عن البحث فى سرِّه ، وعالم الطير فى الهواء كعالم السمك فى الماء ، ملىء بما يعجب ويدهش ، ولكننا لانلتفت إلى أسرار هذه العوالم .

ثم قال تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا

---

(١) النحل : ٧٢ (٢) النحل : ٧٣ ، ٧٤ (٣) النحل : ٧٧
(٤) النحل : ٧٨ (٥) النحل : ٧٩

تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا . . . »[1] إلخ .

إن النعم الإلٰهية فوق الحصر ، وبين كل نَفَس ونَفَس تتنزل نعم ، وتترادف أفضال « وإن تعدُّوا نعمة الله لاتحصوها إن الله غفور رحيم »[2] .

وبعد هذا التذكير يجىء دور الكلام عن القرآن ، ولكنه يجىء من خاتمة الرواية ، عندما يلتقى الأولون والآخرون أمام الله ، وتسأل كل أمة عما أسلفت ، وبماذا أجابت المرسلين ؟ « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »[3] .

هذا المشهد من مشاهد القيامة تكرر فى سورة النساء عند قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا . يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوَّى بهم الأرض ولايكتمون الله حديثا »[4] .

صحّ فى السنن أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكى عندما سمع هذه الآية .

لقد تلقى عن الله كتابا فيه بيان كل شىء ، وبلغه بأمانة ووفاء ، وربَّى به أمة غيرت التاريخ ، ونقلت العالم من الغىِّ إلى الرشاد ! .

ماذا دهى هذه الأمة حتى نسيت فذلّت؟ وغفلت فغلبها الجهال ؟ .

ماذا فى هذا الكتاب من أوامر يصعب تنفيذها ؟ يقول تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . . . »[5] يظهر أن هذه التعاليم صعبة

أيًّا ما كان الأمر فإن الذين استصعبوها لقوا العنت والهون ، ولامنجى إلا بالعودة إلى القرآن .

وناقش القرآن فرية صغيرة وجهها أعداء الإسلام إلى النبىِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ !!

قالوا : إن شخصا من أهل الكتاب ، أو من خبراء الوحى القديم هو الذى يُلقِّن الرسول مايجىء به !! .

مَنْ هذا الشخص ؟ وما الذى استبقاه فى دائرة الظل فلم يعلم به أحد ؟ ! « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يُعلّمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمىّ ، وهذا لسان عربى مبين »[6] . .

الاجماع معقود على أن القرآن معجزة اللسان العربى ، فكيف انبجست بلاغته من فم أعجمىٍّ له بالوحى القديم علاقة قوية أو ضعيفة ؟ .

---

(١) النحل : ٨٠ ، ٨١ (٢) النحل : ١٨ (٣) النحل : ٨٩

(٤) النساء : ٤١ ، ٤٢ (٥) النحل : ٩٠ (٦) النحل : ١٠٣

ولماذا لم يتحدث هذا الشخص ويميط اللثام عن نفسه وعمله ، ويعين قريشا فى عداوتها لمحمد ؟ .

ولنترك هذه الأسئلة ولننظر فى الواقع الملموس ، ونضع التوراة والإنجيل والقرآن أمامنا ونبحث عن وجوه التشابه بينها . .

فى مجال العقيدة تقوم التوراة على التجسيد ، ووصف الله بصفات نابية ، ليس شرها أنه تصارع مع إسرائيل وكاد يهزمه الأخير ولم يفلته إلا بشرط . ! .

لقد تجسد الله فى التوراة مرات عدة ، وَوُصف بالجهل والنزق والندم ، فهل من هذا الحديث بنى القرآن العقيدة على الوحدانية المطلقة ، والسلطان الأعلى ، والتنزه عن كل نقص ، والتحلى بكل كمال ؟ « الرحمن على العرش استوى . له مافى السموات ومافى الأرض ومابينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى »[1] .

أى شبه يوجد بين الكتابين فى مجال العقيدة ؟ أو التاريخ ؟ أو سيَر الأنبياء ؟ .

ويبنى القرآن الإيمان على التوحيد « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدَّهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا »[2] فهل هكذا تقول الأناجيل المنتشرة ؟ .

إن عبدا من الملائكة هو جبريل سُمِّى الإله : روح القدس ، وعبدا من الأنبياء هو عيسى بن مريم سُمِّى الإله : الابن ، أما الخالق الباقى فسمِّى الإله : الأب . ثم قيل : إن الكل واحد ، وأن الإله مثلث الذات ، ولا مانع أن يكون الإله الابن رب البشر !! . .

هل تعلّم محمد حرفا من هذا وأودعه كتابه ؟ أم هو صاحب سورة الإخلاص : « قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفؤا أحد »[3]

إن من العبث بالعقل الإنسانى أن يقول أحد : أخذ محمد كتابه من الكتب الأولى !! .

ودع التناقض القائم فى ميدان الاعتقاد إلى الأسلوب الذى تفرد القرآن به فى غرس التقوى ، ومضاعفة أشواق الكمال ، وكبح وساوس الضعف والهبوط . هل تجد من شَبَه ؟ .

إن أمجاد الألوهية تتألق فى جوّ القرآن ، وتجعل الإنسان شديد الحس بعظمة الله وقيامه على العالم أجمع ، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، كما يعلم أين تهوى النجوم ، ثم تشرق بعد أن تغرب ! .

إن آيات القرآن تُشيِّد للجلال الإلهى صرحا فى كل نفس . وتجعل المرء عبدا لله وحده ، لا عبد رغبة ورهبة ! .

---

(١) طه : ٥ ـ ٧ (٢) مريم : ٩٣ ـ ٩٥ (٣) الإخلاص : ١ ـ ٤

لقد انفرد القرآن بنسق لم يعهد فى غيره من الكتب ، فكيف يزعم زاعم أنه مأخوذ مما قيل من قبل ؟ إن الأقوى لايأخذ من الأضعف ، والمكثر لايأخذ من المقل ، وقارون لايأخذ ماله من بائع خبز فى دكان مهجور!!.

والمستشرقون الذين يرددون هذا اللغو يهرفون بما لايعرفون ، ويبعثوننا على السخرية منهم . . .

ويستحيل أن يهتدوا إلى الحقيقة وهم يستبطنون هذا الهذر : « إن الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذاب أليم. إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون»[1] وقد اشتدت وطأة القرآن على أولئك المفترين، لأن كذبهم مفضوح، واتهامهم سخيف . .

وسيبقى القرآن حتى آخر الدهر قمة لاتُطاول ، وأَوْجاً لايُنال . . .

غير أن النظم الكريم عرض بالمعذرة والمغفرة لأناس ضعفوا فى سعير الفتنة ، ونطقوا بكلمة الكفر راغبين : « من كفر بالله من بعد إيمانه ـ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ـ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لايهدى القوم الكافرين » [2]

لقد قامت سورة النحل على إحصاء النعم الإلّهية ، وفى مقدمتها نعمة القرآن الكريم ، والمفروض أن يلقى الناس هذه النعم بالشكران والإيمان.

غير أن هناك من اعتسف الطريق ، وآثر الكنود ، فماذا كانت عاقبته ؟ « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » [3] الشكر قيد النعم ، والإيمان حارسها وحافظها . . .

وربما أخطأ البعض ثم ثاب إلى رشده ، ورجع إلى الله ، إن الله غافر الذنب وقابل التوب ، فليثق التائبون أن الله لن يضيع إيمانهم أو يسدَّ الطريق فى وجوههم « ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » [4].

وخدمة الحق تحتاج إلى رجل « أُمَّة » أو بالتعبير المعاصر « فُتُوّ » ـ جمع فتى ـ على نحو ما قال الشاعر :

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أَمْرٌ عَنَى . !

وقد كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمة ، وكان محمد كذلك أمة يشبه جدَّه كبير الأنبياء ، قال الشاعر :

---

(١) النحل : ١٠٤ ، ١٠٥ (٢) النحل : ١٠٦ ، ١٠٧ (٣) النحل : ١١٢
(٤) النحل : ١١٩

كـأنه ـ وهـو فـرد ـ من جـلالته   فى عسكر حين تلقاه ، وفى حشم !! .

والإسلام دين الفطرة ، وهو ترديد للرسالات الأولى حينما نزلت من السماء ، أما ماطرأ على الأديان السابقة من تحريف وتشويه فقد باعد بينها وبين أصولها ، وانفصلت به عن مواريث السماء .

وأنا أؤيد تفسير الفضل بن عاشور لقوله تعالى : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه »[1] أى : فى إبراهيم ، فابتعدوا عن سيرته ورسالته ، وكانت لهم تعاليم وتقاليد أخرى . . .

ثم ختمت السورة بأن الدعوة الإسلامية تقوم على الحوار والإقناع والأخذ والردّ، ولاتتخذ الإكراه طريقا لانتشارها « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[2]

ولايستطيع ذلك إلا فقيه فى الكتاب والسنة ، عارف بالداء والدواء .

---

(1) النحل : ١٢٤   (2) النحل : ١٢٥

سورة الإسراء

الآية الأولى من هذه السورة تضمنت قصة الإسراء ، ثم عاد التاريخ القهقرى ليذكر بنى إسرائيل وما عرض لهم أثناء إقامتهم الأولى فى فلسطين .

لقد أوتوا التوراة دينا ودولة ، والمرتقب منهم ومن أمثالهم إذا أقاموا حكومة دينية أن تكون صورة للنظام لا للفوضى ، وللعدالة لا للجور ، لكن بنى إسرائيل الذين عانوا كثيرا تحت وطأة الاستبداد الفرعونى لم يلبثوا طويلا حتى جدّدوا سيرة الفراعنة الأولين ، فعاثوا فى الأرض فسادا ، ولم يكن بدٌّ من تأديبهم .

وتسمَّى هذه السورة سورة بنى إسرائيل ، كما تسمَّى سورة الإسراء .

ويشرح القرآن الكريم أن العجز الإدارى والخلقى فى سلطة بلد ما ينتهى بزوال هذه السلطة ، وقدوم آخرين من الخارج ليتولّوا هم الحكم ، ويعاقبوا العابثين ، قال تعالى : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب »[1] يعنى سجلات العلم الأزلى « لتفسدُنَّ فى الأرض مرتين ولتعلُنّ علوا كبيرا . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا »[2] .

إن الدولة التى تختلّ أمورها تُحْتَلّ أرضها ، وتفقد استقلالها وحريتها . . .

أوتيت ملكا فلم تحسن سياسته   كذاك من لايسوس الملك يخلعه . !

إن الفساد والاستعلاء لايتصوران فى حكم يقوم على الوحى وينتسب إلى السماء ، ولذلك فإن عقوبة أهله تكون شديدة ، استعمار أجنبى يقوم على الإذلال والاضطهاد ، حتى إذا استقام المعوج وعاد إلى أدبه واصطلح مع ربه عادت إليه مكانته وكرامته « ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا »[3] .

وليس مايقع مكافأة أنهت المأساة . إنه اختبار جديد ، وعلى الشعوب أن تعى وترعوى « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها . . . »[4] .

---

(١) الإسراء : ٤   (٢) الإسراء : ٤ ، ٥   (٣) الإسراء : ٦

(٤) الإسراء : ٧

ويظهر أن اليهود أدمنوا المرض ، واستمرأوا العلل ، فلا تكاد أحوالهم تستقيم عصرا حتى يحنّوا إلى عبثهم ومظالمهم ، ويتجدد العقاب ، وتتجدد التوبة « وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا »(١) .

ويقول التاريخ : إن الإفسادة الأولى أعقبها تدمير الآشوريين لدولة اليهود وهدمهم لهيكل سليمان .

ثم قامت الدولة ثانية ، وعادت إلى الإفساد فهاجمها الرومان وتكررت العقوبة ، وبقى اليهود دهرا طويلا بلا دولة !! .

ثم شاء الله أن يقلد المسلمون اليهود ، وأن يفسدوا دولة الوحى بأهوائهم ! وكانت عقوبة القدر هذه المرة أن يقيم بنو إسرائيل دولة على أنقاض العرب الذى تخلَّوْا عن القرآن ، واخلدوا إلى الأرض .

والصراع القائم اليوم غريب ، لأنه بين مسلمين تخلَّوْا عن مواريث السماء ، واستهوتهم نزعات جنسية !! وبين يهود يرفعون راية التوراة ، ويعظمون يوم السبت .

أى : بين وحى حق قليل الأنصار ، وبين وحى مختلط محرّف يغالى به أهله « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا »(٢)

ونعود إلى سورة الإسراء لنلحظ فيها أمرا تفردت به ، وهو أن كلمة « القرآن » تكررت نحو إحدى عشرة مرة ، وهو مالم يقع فى سورة أخرى ! ألهذا علاقة بما شرحناه من طبيعة المعركة القائمة اليوم بيننا وبين اليهود ؟ ولنذكر الآن هذه الآيات :

(١) « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا »(٣) .

(٢) « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ومايزيدهم إلا نفورا »(٤)

(٣) « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولَّوا على أدبارهم نفورا »(٥) .

يقول جل شأنه قبل ذلك :

(٤) «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا »(٦)

(٥) « وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة المعلونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا »(٧) .

---

(١) الإسراء : ٨ (٢) الفرقان : ٢٠ (٣) الإسراء : ٩ (٤) الإسراء : ٤١

(٥) الإسراء : ٤٦ (٦) الإسراء : ٤٥ (٧) الإسراء : ٦٠

(٦) و (٧) « وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا »[١] .

(٨) « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خسارا »[٢] .

(٩) « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[٣] .

(١٠) «ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا »[٤] .

(١١) « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا »[٥] .

وقد ذكر القرآن فى هذه السورة باسم الروح « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »[٦] .

والسياق أدلُّ على هذا المعنى من التفسير الآخر للروح ، وإن كان تفسيرا جائزا .

كما ذكر القرآن بعود الضمير إليه فى قوله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا »[٧]

إن سورة بنى إسرائيل انفردت بهذه الخاصة علّ المسلمين يفقهون أن القرآن الذى صنع أمتهم قديما قدير على أن يصبَّهم فى قوالب السيادة والقيادة مرة أخرى ، وعلى أن ينتزع من نفوسهم حب الدنيا وكراهية الموت ، ويهب لهم قلوبا شجاعة تفتدى الحق وتحرص على لقاء الله !! .

أحيانا يكون الجهل عذرًا مخففا ، أما التجاهل والاستكبار على الحق وإيثار العمى على الهدى فهو ذريعة غضب هائل .

وقديما سلط الله عبدة الأوثان على بنى إسرائيل ، لأنهم لم يقدروا كتابهم قدره ، فليس عجيبا أن يسلط على المسلمين بعد ما أهملوا القرآن من لايقيم لهم وزنا أو يعرف لهم حقا .

وطريق العودة واضح : لابد من عقيدة وشريعة وأخلاق ومعاملات تتفجر من ينابيع القرآن ، ويحيا بها المسلمون من جديد ، حياة تجعلهم أمة الوحى ، وصلة السماء بالأرض .

من تجاوز الحق ومتابعة الوهم أن تزرع فى الصباح وتنتظر الحصاد فى الأصيل ! إن لكل شىء أوانا يتم فيه ، رضى المرء أم سخط .

والإنسان لايشبّ فى يوم ، والحضارة لاتزدهر فى شهر ، والنتائج تتحقق وفق قوانين مضبوطة تتم مع كرّ الغداة ومر العشىّ .

---

(١) الإسراء : ٧٨ (٢) الإسراء : ٨٢ (٣) الإسراء : ٨٨ (٤) الإسراء : ٨٩
(٥) الإسراء : ١٠٦ (٦) الإسراء : ٨٥ (٧) الإسراء : ١٠٥

ومهما دعا المؤمن فلابد من الصبر على سنن الله الكونية . « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا» .[1]

ورعاية للزمان وخضوعا له جاء الحديث عنه فى الآية اللاحقة : « وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا »[2]

ومع سير الزمن تقوم دول وتنهزم أخرى ، ويعلو أمر اليهود ويسفل ، كما أبان الوحى أول السورة ، وكذلك تتقلب الدنيا بغيرهم من الناس .

لكن الإنسان هو المسئول الأول عن نفسه ، إذا عقل فقد اتخذ القرار السليم ، وإن شرد هوى « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضلّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى . . . »[3] .

وهذا قانون للأفراد والشعوب ، وإن كشف القرآن الكريم هنا أن الترف أول مظاهر الفساد فى الأمة ، وأن المترفين هم الجراثيم الحاملة والناقلة للمرض ، وأن مطاوعتهم خطوة إلى الهاوية « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول ، فدمّرناها تدميرا »[4] .

والحضارات القائمة على الدين تظل معتصمة به ، وحاملة لواءه ما ظلّت بعيدة عن الترف والمراسم الفارغة ، وقسوة القلب .

ويتم لها ذلك إذا حدَّدت موقفها من الآخرة تحديدًا واضحا « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد »[5]

ما نشاء لمن نريد !! عبارة صارمة ، إن الله لا يُغلَب على أمره ، ولا يُنال ماعنده إلا بإرادته ، ومايملك أحد عليه شيئا . . والتدين الكاذب لايروج عند الله ، وليست لأهله وجاهة ، ويقول سبحانه هنا : « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح . . . . »[6]

والحديث عن الأمم السابقة حتى بعثة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أما بعد ذلك فقد تحدثت آية أخرى عن مصاير المجرمين « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا »[7] والكتاب فيما يبدو هو سِجِلُ العلم الإلهى . . والتحذير لنا وللناس أجمعين ،

ما النجاة من هذه المصاير ؟ تسوق سورة بنى إسرائيل خلال صفحتين حافلتين جملة من

---

(١) الإسراء : ١١ (٢) الإسراء : ١٢ (٣) الإسراء : ١٥ (٤) الإسراء : ١٦
(٥) الإسراء : ١٨ (٦) الإسراء : ١٧ (٧) الإسراء : ٥٨

الوصايا العظيمة تعصم الناس من الزلل ، وتقودهم إلى الرشد ، وتضمن لهم الرعاية الإلهية فى الحاضر والمستقبل .

وتبدأ هذه الوصايا بقوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا . . »[١]

وتنتهى بقوله : « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولاتجعل مع الله إلَهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا »[٢] بدأت هذه النصائح بتوحيد الله وختمت كذلك بتوحيده ، لأن القلب الذى يعنو لغير الله لا أمل فيه ، والاستقامة الكاملة مربوطة بالتوحيد الكامل .

ومع عبادة الله وحده يجىء البر بالوالدين ، ويدرك المرء قيمة هذه الوصاة عندما يتأمل فى المجتمعات الغربية ، ويرمق ملاجئ العجزة ، أى الآباء والأمهات عند الكبر .

لقد ضاقت بهم بيوتهم ، وابتعد عنهم أولادهم ، وصاروا إلى هذه المبانى المخصصة لهم حتى يدركهم الموت !! .

إن الأجيال التى وهبت الحياة للآخرين لم تجد لديهم لمسة وفاء ، إنهم ينطلقون فى الدنيا انطلاق الوحش فى البرية ، حتى إذا ولّى شبابهم سكنوا فى مساكن آبائهم بعد أن يخليها منهم الموت . . وهكذا . . لقد صارت الأثرة قانونا . . !! .

والغريب أن الآباء يربون أولادهم حتى البلوغ فإذا جاء سن الرشد فلكل وجهة هو موليها ! ماتجمعهم فى الدنيا إلا أعياد الميلاد ، أو مناسبات خاصة . . .

إن للجماعة المؤمنة شارات أخرى ، يقول الله فى الوالدين : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »[٣] ويقول فى الأقارب : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا »[٤]

والتفسير الحق عندى أن المرء لايجوز له التوسع فى النفقة والاستكثار من الكماليات ، فإن ذلك تبذير يحصد ما لديه ، ولايبقى عنده فضلا يعطيه قريبا أو بعيدا . .

وأكد القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »[٥] .

وسياسة تقليل النسل لاتغنى عن الشعوب البليدة شيئا ! يجب أن تلتمس المفاتيح لخزائن

---

(١) الإسراء : ٢٣ (٢) الإسراء : ٣٩ (٣) الإسراء : ٢٣
(٤) الإسراء : ٢٦ (٥) الإسراء : ٢٩

الخيرات التى بثها الله هنا وهناك ، والسماء لاتمطر القاعدين ذهبا ولا فضة . . « ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق »[1].

ونهى القرآن عن الزنا ، والزنا عملة متداولة فى الحضارة الحديثة ، وهو أفضل من الكبت فى مجال التربية عندهم ، ولا يعاقب عليه قانونا مادام بالتراضى !! والله يقول : « ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا »[2] .

ومع أن قتل النفس جريمة فالقانون لايقتل القاتل . . . وقد حرمت عقوبة الاعدام فى دول كثيرة ! وأدى ذلك إلى شيوع القتل وسفك الدماء الحرام « ولاتقتلوا النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا »[3] .

وأمر الله الناس باحترام مال اليتيم وبالوفاء بالعهود ، وبضبط المكاييل والموازين .

ثم ذكر لكل إنسان أنه مسئول عن سمعه وبصره وقلبه ، إنه مسئول عن كل شىء فيه ، فلا يجوز أن يحيا فوضويا سائبا « ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »[4].

ولو أن الناس وقفوا أمام مايعرض لهم من أوهام ، ولم يصدقوا ما وصل إليهم من شائعات لنجوا من شرور جمَّة ! .

ونهى القرآن أخيرا عن الخيلاء وذهاب المرء بنفسه « ولاتمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . . . »[5] .

إن هذه الوصايا تقيم الفرد المؤمن والشعب المؤمن ، والحضارة الصالحة ، ولن يهزم الله أمة تمسكت بهذه الخلال .

بدأ فى ختام هذه النصائح حديث شجىّ عن الله ولقائه ، والكون وخالقه ! .

وأذكر أن الدكتور أحمد زكى وصف الكون بشموسه وأقماره : بأنه كون راقص ، كل شىء فيه يتحرك ! من شروق إلى غروب ، ومن علوّ إلى هبوط ، إنه يتحرك وفق نَغَم معين لافوضى فيه ولانشاز .

وكل دقيقة تمر تشهد بعظمة صاحبه ، وتنطق بعلو قدره .

ومع ذلك فلا أدرى لِمَ أنا مبهور بخلق الإنسان ؟ تائه فى أسرار القدرة الكامنة فى خلقه ؟ نظرت تحت الساعة الموضوعة بمعصم يدى اليسرى ! كانت ضاغطة قليلا على الجلد ، أثر ذلك

---

(١) الإسراء : ٣١ (٢) الإسراء : ٣٢ (٣) الإسراء : ٣٣
(٤) الإسراء : ٣٦ (٥) الإسراء : ٣٧

فى الشعيرات الدموية قليلا ، لم يؤثر فى قنوات الأعصاب التى تحمل الإحساس ، ولا فى أفواه الغدد التى تمدّ الشعر بالغذاء ، ولا فى الخلايا التى تفرز العرق !! .

وتتابع فكرى فى هذا الجسم كله وأجهزته العاملة ، وكيانه المتجدّد كما يقول العلماء ، إن مئات الملايين من الخلايا تعمل مؤدية وظيفتها بدأب ونظام ، وتحدد لأبناء آدم مسيرتهم فى هذه الحياة !!

أتدرى خلية فى المخ أو فى الأصابع ماتعمل ؟ ليس لكرات الدم البيضاء أو الحمراء أو لغيرها من أعضاء الجسد عقل تهتدى به ! .

إن بارئها أودع فيها وظيفتها ودفعها فى مسارها ، فما تحيد عنه يمنة أو يسرة .

أذلك ليوم واحد ؟ كلا ! إنه لعمر مكتوب لايزيد ولا ينقص ! .

أذلك فى شخص واحد يتركز الاهتمام فيه ؟ كلا ، إنه فى أكثر من خمسة مليارات شخص يتوزع الاهتمام عليها ، فما يقلّ فى أحد عن آخر ! .

ألا يصرخ ذلك بعظمة البارئ الأعلى؟ إن كل فرد، بل كل ذرة، شاهد صدق على عظمة الله! .

ونظرت فى سورة « سبحان» فإذا الله ـ جل شأنه ـ يخاطب المشركين بحديث عجب : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ومايزيدهم إلا نفورا . قل لو كان معه آلهة ـ كما يقولون ـ إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن . وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا »(١)

ولست أحقّقُ هنا : هل تسبيح الكائنات بحمد ربها دلالة حال أو دلالة مقال ؟ .

إن الكون ـ على أية حال ـ لايقوم بنفسه ، وإنما يقوم به الحىُّ القيوم !! .

وإذا صعب على مغفل أن يعرف الله ، وأن يُقِرّ بوحدانيته فلن يضرّ الله شيئا ، فكل شىء يسبح بحمده ! .

ومضت السورة تحدث المشركين عن الله الذى هجروه ، واتخذوا الأصنام آلهة من دونه ، إنهم ذاهلون تائهون ، لايحبون أن يسمعوا حديثا عنه ! .

وهم يحسبون الرسول رجلا مسحورا ، وهم يعتقدون أنه لاحياة إلا فى هذه الدنيا ، وتلك طبيعة الدواب ! إن الدواب لاتشعر بغد قريب أو بعيد ، إنها تعيش يومها وحَسْبُ ، هى محبوسة وراء محيطه .

والغريب أن العالم المعاصر لايدرى إلا هذا المنطق ، وهو يشيعه فى عالم الفن والغناء ، وعالم القانون والفلسفة !! « وقالوا : أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا . قل كونوا حجارة

(١) الإسراء : ٤١ ـ ٤٤

أو حديدا . أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة ! فيسنغضون إليك رءوسهم ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا . . . »[1] والإنغاض : تحريك الرأس علوا وسفلا إنكارا واستهزاء . .

وفى موضع آخر من السورة تكرر رفض المشركين للبعث والجزاء ، فبيّن القرآن الكريم أن الإنسان امتاز على الدواب بعقله ، فإذا فقد هذا العقل نظر ولم ير ، وسمع ولم يع ، ونطق بالباطل ، وفقد أهليته لهداية الله ، وَعَالَنَ بإنكاره لوجوده ولقائه : « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا إإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا »[2] .

وفى سورة بنى إسرائيل لاغرابة أن يوصى الله المسلمين بإحسان القول ، ففى وصايا الله لليهود «وقولوا للناس حسنا »[3] فليكن الإحسان فى القول والتلطف فى الدعوة شيمة الأمة الخاتمة ! « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوًّا مبينا»[4] . .

وتلت ذلك إشارة إلى أن أمر المسلمين سوف يعلو حتى يرثوا الأرض ، وذلك فى قوله تعالى : «وربك أعلم بمن فى السموات والأرض . ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا»[5] إن الزبور الذى نزل على داود يقول الله فيه « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » [6] ، فإيثار داود بالذكر لَفْتُ نظر لهذه الإشارة الدالة على خلود أمتنا واتصال رسالتها .

والحق أن التوحيد الذى تميزت رسالة الإسلام بتقريره ، وتحمست لإشاعته ، يربط الناس بربهم ربطا شديدا ، ويجعل عروتهم به وثيقة ، ويقرر أن كل ماعدا الله عبدٌ له ، مقهور فى جلاله : « قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورا » [7] .

---

(١) الإسراء : ٤٩ ـ ٥١ (٢) الإسراء : ٩٧ ـ ٩٩ (٣) البقرة : ٨٣
(٤) الإسراء : ٥٣ (٥) الإسراء : ٥٥ (٦) الأنبياء : ١٠٥
(٧) الإسراء : ٥٦ ، ٥٧

واقتضى المقام هنا حديثا عن آدم وبنيه ! لقد كان آدم جديرا بأن يكون أفضل حالا ومآلا بعدما اصطفاه الله وأعلى شأنه ، وأسجد له ملائكته .

وكان بنوه جديرين بأن يكذبوا ظنون إبليس ، بعد ما أفاء الله عليهم من نعمائه مايلهج الألسنة بالشكر « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . . . » [1] لكن آدم وَهَنَ عزمه ، وأبناءه نسوا الجميل الذى يمرحون فيه ، فلم يكن من مؤاخذتهم بدٌ ، وجاء فى هذا القرآن من شأنهم ما يثير الدهشة ، فلتتدبره لنعرف كيف نفعل . . ؟!

إن الله منحنا العقول لنفكر ونحكم ، ونميز الحسن من القبيح والطيب من الخبيث ، وماقيمة عقولنا إذا لم نفعل ذلك ؟ .

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ! إذا استوت عنده الأنوار والظُّلَمُ؟ .

وعندما نقول لرجل : واحد وواحد تساوى اثنين ، فيقول لك : لا أصدق حتى تنقل الجبل من مكانه ، أفترى أن لهذا القائل منطقا جديرا باحترام ؟ .

إن محمدا رسول الله بذل جهده فى إثبات أن الله واحد ، وأن وجوده الأعلى أصدق من كل وجود ، فقيل له : بل أصنامنا أولى بالتقدير ! وتحدَّوه أن يأتى بمعجزة تصدقه ! .

ولو أن هؤلاء أصحاب نفوس سويَّة وعقول سليمة لجاز أن يتنزَّل القدر الأعلى ويجيبهم إلى مايريدون ، المشكلة أن كفرهم يبقى بعدما يجابون « . . . فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون » [2]؟ .

لقد طلب أهل مكة من محمد أن يجعل الصفا ذهبا ، حتى يصدقوا رسالته ! فكيف إذا حوّل لهم الجبل إلى ذهب ثم ظلّوا على تكذيبهم ؟ إنه مهلكهم يقينا ، إن اللعب مع السماء لايسوغ .

وفى هذه السورة « الإسراء » يقول الله تعالى : « ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ومانرسل بالآيات إلا تخويفا » [3] .

على أن قريشا لم تطلب خارقة مَّا ، بل حددت بضع خوارق عدَّتها عدًّا « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . . قل سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا » [4]؟ .

---

(١) الإسراء : ٧٠ (٢) الأنبياء : ٥ ، ٦ (٣) الإسراء : ٥٩ (٤) الإسراء : ٩٠ ـ ٩٣

الواقع أن الله لو حقق لهم مايطلبون ماخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، كما قال فى مكان آخر: « ولوفتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سُكِّرتْ أبصارنا بل نحن قوم مسحورون»[1] .

إن العناد ملك قلوبهم ، وليس الكفر عَرَضا سريعا يمرّ ببعض الناس ، إنه مزيج من الحسد والغباء ، والطمع والأثرة ، والبعد عن الكفر يتطلب عقلا واعيا ، وحكما عادلا ، وخلقا زاكيا .

والمعركة بين الكفر والإيمان ليست جولة سريعة ، إنها صراع يظل سنين « ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بيّنة . . »[2] !! « فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولايظلمون فتيلا . ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا »[3] .

ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إمام أولى العزم الذين جاهدوا الضلال الأزمنة الماضية ، وهو فى الجزيرة العربية لن ينشغل بمآرب كفارها ومقترحاتهم ، فرسالته العامة إصلاح الخلل فى كل نفس ، فى أية قارة ، إلى أن تقوم الساعة .

ويزيد عبؤه جسامة إلى أنه يعتمد فى نجاحه ـ بعد تأييد الله ـ على تحريك العقول وهزّ التقاليد ، ومعالجة العوج البشرى بالهوينى ، حتى يسلس قياده ! ويالها من مهمة !! .

هؤلاء كبراء يرفضون أن تجمعهم مع جماهير الناس ساحة ، وقديما قالوا لنوح : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال : وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين »[4] .

إنهم يطلبون من محمد أن يجعل لهم مكانة خاصة إذا أراد أن يؤمنوا له !! .

وقد ينفق من وقته واهتمامه الكثير ليعالج زعيما إذا آمن تبعته ألوف من الأنصار ! وربما أخذ هذا الوقت من حق آخر فقير . . !

وفى هذا يقول الله له : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا»[5] .

إن سياسة الدعوة شىء ، والانحرافات الخلقية شىء آخر ، وقد عاتب الله نبيه لانشغاله بأحد الكبراء عن أحد الضعفاء . والسياق كله تنبيه إلى كيدهم وتحذير من ملاينتهم . . .

وتلا ذلك كشف عن خباياهم وعما يبيتون لدعوة الإسلام من شرور « وإن كادوا ليستفزونك

---

(١) الحجر: ١٤، ١٥ (٢) الأنفال : ٤٢ (٣) الإسراء : ٧٠ ، ٧١
(٤) الشعراء : ١١١ ـ ١١٤ (٥) الإسراء : ٧٣ ـ ٧٥

من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لايلبثون خلافك إلا قليلا »[1] إنهم أحرجوه فى مكة كل الحرج ، وكانوا قد رأوا إخراجه ، ثم اختاروا قتله .

وقد خرج الرسول مهاجرا ، ونجاه الله من كيدهم ، ولم يلبثوا إلا قليلا بعده حتى انتصر الإسلام وعاد إلى مكة ظافرا . . . وصدق الله وعده .

وبعد جهاد الدعوة جاء جهاد العبادة ، فكلّف الرسول بالصلاة ليلا ونهارا « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا»[2].

إننى ألفت كتابى « فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء » وقد تملكنى شعور بأن الأرض من الأزل إلى الأبد لم تشهد ذاكرا عابدا متفننا فى الثناء على الله وتمجيده وتقديسه كما رأت ذلك فى سيرة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وآثاره فى كتابه وسنته ناطقة بهذه الحقيقة ! .

إن محمدا كلمة الله الأخيرة إلى الناس ، واللبنة التى تم بها بنيان النبوات الأولى ، وقد كان أهل الكتاب يشعرون بأن هناك نبيا قادما ، ويجدون فيها لديهم مايدعو إلى ارتقابه وتصديقه .

فلما جاء سارع المخلصون إلى اتباعه ، قال تعالى : « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا . قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا »[3] .

والتاريخ العالمى يذكر أن نصارى الشام ومصر سارعوا إلى الدخول فى الإسلام بعد زوال الاستبداد الرومانى ، ثم حملوه مع العرب إلى آفاق العالمين ، مصداق هذه الآيات الكريمة ، وإشارة بصدق هذا الجمهور الكبير من أهل الكتاب الذين آمنوا وأخلصوا . . . .

---

(١) الإسراء : ٧٦ (٢) الإسراء : ٧٨ (٣) الإسراء : ١٠٥ ـ ١٠٨



سورة الكهف

الكون يدل على الله والوحى يقود إليه ! والإيمان الصحيح يستمد حقيقته من الدلالتين معا : من دراسة الكون ، وتدبّر الوحى ، وفى لفت النظر إلى الدلالة يقول تعالى : «الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور . . . »[١] .

ويتكرر الحمد ـ أول سورة الكهف ـ للفت النظر إلى الدلالة الثانية « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا »[٢] .

وقد طلب الله من عباده أن يدرسوا الحياة ، وأن يتأملوا فى كل شىء ! كما طلب منهم أن يدرسوا هذا القرآن ويتدبروا آياته ، وبيّن أن من حُرِم هاتين الدراستين فَقَدَ رشده « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وماخلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون »[٣]؟ .

والعالم يصرخ بأن ليس له إلا رب واحد ، فى أى زوايا الأرض أو الفضاء يقبع هذا الإله الآخر المسكين ؟ ومواريث السماء متفقة على أن الله واحد ، وكل ماعداه مخلوق له ، ليس لله بنون ولا بنات ، الله ليس لأحد والداً ! ! .

وقد شرح القرآن ذلك أوفى شرح ، فمبلِّغ القرآن « محمد » عبدٌ لله كغيره من حملة سائر الوحى ، ومن قال غير ذلك فهو يهرف بما لايعرف « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ماهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »[٤] .

والقرآن المصدر الأول ـ أو قل المصدر الأوحد ـ لتقرير الوحدانية ، ولذلك وصف بأنه قويم الفكرة والتوجيه برىء مما لحق غيره من آفات .

وتوضيح الحق وتحديد مصدره نعمة سابغة ، ولذلك فتحت سورة الكهف بهذه الآيات «الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيّما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا . ماكثين فيه أبدا . . . »[٥] وقد تضمنت

---

(١) الأنعام : ١ — (٢) الكهف : ١ — (٣) الأعراف : ١٨٥
(٤) الكهف : ٤ ، ٥ — (٥) الكهف : ١ ـ ٣

هذه السورة أطرافا من تاريخ الحياة الإنسانية تشهد بصدق موضوعها : وهو التوحيد ، وماذكر هنا نماذج لما لم يذكر من أحوال الناس .

ففيها قصة الفتية أهل الكهف ، والرجلين : صاحب الجنة ، ومحاوره الفقير ، وحكاية موسى مع الخضر ، ونبذة مجملة عن حياة ذى القرنين ! .

وبعد كل قصة تعليق شاف رائع يهدى إلى الله ويُعدّ للقائه .

وقبل الإفاضة فى شرح هذه الأحداث قيل لمحمد : بلّغ ولا تحزن لتكذيب مكذب ، قد كان فؤاده يطفح بالكآبة وهو يدعو إلى الله بإخلاص فيفجؤه انصراف الناس ، وتهجم المكذبين .

إنه صاحب حق ضلّوا عنه ، وتبعوا أوهاما لن تقودهم إلا إلى الردى . وما أكثر الحيارى التائهين فى هذه الدنيا ، وما أشدّ صدودهم عن الهدى ! .

لكن الله يقول له : «فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » [1] : لايقتلنك الحزن على حالهم ، إن عليك إلا البلاغ . .

إن كل إنسان أوتى عقلا يحاسب به ، ويُساءل عن الفترة التى يقضيها على ظهر الأرض. فمن أحسن العمل نجا ، ومن أساء هوى ، ولا يظلم ربك أحدا . . .

ثم بدأ سرد قصة أهل الكهف . . .

وأهل الكهف شباب آمنوا بالله الواحد ، وعلموا أن مادونه أصفار لاتضر ولاتنفع ، لكن قومهم كانوا يؤمنون بآلهة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، فوقعت النُّفرة واشتدت الخصومة «هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا» [2] .

وفى مراحل الفتنة التى مرت بهم فرّوا إلى كهف يؤويهم من الظلمة ، ويحميهم من بطشهم ، فشاء الله أن يجعل من سيرتهم وحيا يتلى إلى آخر الدهر ! .

ومأساة الاستبداد السياسى والمقاومة المؤمنة تتكرر على اختلاف الليل والنهار ، وكذلك نصر الله للمؤمنين وخذلانه للكافرين « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» [3]؟ إن تاريخهم ليس بدعا فى التاريخ ! .

على أنى أنظر إلى مقامهم فى الكهف ـ كما أراد الله لهم ـ فأشعر بالدهشة . يقول العلم : إن الشمس على بعد مائة وخمسين مليون كيلو ، وإن شعاعها ينطلق منها ليصل إلينا فى ثمانى دقائق .

---

(١) الكهف : ٦ (٢) الكهف : ١٥ (٣) الكهف : ٩

وها هوذا ضوءها يسقط على الكهف المعمور بأهله ، إن الشعاع يميل عن فم الكهف فى الصباح يمينا ، وفى المساء شمالا ، حتى لايشعر مارٌ بأن فى الكهف أحدا ! .

ما هذه الآية الحانية على الشباب المؤمن ؟ « وترى الشمس إذا طلعت تزّاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله . . . »(١) .

ما أكثر آيات الله فى الأولين والآخرين ، وما أكثرها حولنا ونحن فى غيبوبة لانشعر بها . .

وبعد ثلاثمائة سنة يستيقظون ، فماذا يعنيهم بعدما صحوا جياعا عقب نوم طويل ؟ يرسلون أحدهم ليشترى طعاما ، ويقولون له : احذر أن يعرفك أحد من المشركين « إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا »(٢) .

إنهم لايدرون شيئا مما عراهم ، كل مايعْنيهم الثبات على الحق ، ونبذ الضلالة ، والفرار من الفتنة ، ولذلك خُتمتْ قصتهم بقوله تعالى : «قلِ الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا »(٣) .

إن القصة كلها لدعم عقيدة التوحيد ، ذلك وقد جاء أول السورة قول تعالى « . . . أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا »(٤) فلا عجب إذا جاء بعد ختام القصة « اتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا »(٥) . .

والناس من هذا الكتاب فريقان : فريق آمن به وتبع رسوله ، وفريق آخر زاغ عن الحق وتبع هواه ، وهنا نجد الله سبحانه يوصى نبيه بأن يكون مع الفريق الأول برًّا ودوداً « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه »(٦) . . .

ومع الفريق الآخر نابذاً مباعداً « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا»(٧) .

ولكلا الفريقين مصيره العدل عندما تقوم الساعة « إنا أَعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها»(٨) أما أهل التقى والشرف فلهم جزاء آخر « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنَّا لانضيع أجر من أحسن عملا »(٩) وبعد هذا البيان الشافى يقال لأهل الأرض أجمعين : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»(١٠) .

---

(١) الكهف : ١٧ (٢) الكهف : ٢٠ (٣) الكهف : ٢٦
(٤) الكهف : ١ (٥) الكهف : ٢٧ (٦) الكهف : ٢٨
(٧) الكهف : ٢٨ (٨) الكهف : ٢٩ (٩) الكهف ٣٠
(١٠) الكهف : ٢٩

المؤمن إنسان يعرف ربه ، ويحيا له ، ويستعدّ للقائه ، ويعلم أن الموت لايقطع خط الحياة ، فإن هذا الخط لايقطعه شيء ، إن الموت نقطة تحوّل ـ وحسب ـ من حياة إلى أخرى .

أما الكافر فامرؤ يعرف نفسه ويحيا لها ، ويقضى العمر فى تحصيل حاجاته ، وإدراك لباناته ، ولاينتظر بعثا بعد الموت ، فإن حياته الحاضرة هى عنده الأولى والآخرة . .

وفى سورة الكهف حوار بين كافر على جانب من الثراء ومؤمن قليل المال « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . . . »[1] ولم تكن للآخر أمثال هذه الحدائق الزاهرة . .

فإذا الغنىّ المغرور يقول له مفاخرا مكاثرا : « أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . . »[2] لماذا تُعيِّر إنسانا مثلك بفقره ؟ ساعده إن استطعت ، واحفظ لسانك عنه . . ! من يدرى ! قد يكون خيرا منك عند الله . . ؟ .

إن الله كره من مطيع تطاول بطاعته ، وقال لرجل مقصّر : والله لايغفر الله لك . ! فقال الله له يوم القيامة : « أكنت على مافى يدىَّ قادرا ؟ ! فإنى قد غفرت له وأحبطتُ عملك . . . ! ! » .

أدب الإسلام أن تنظر إلى نعم الله عندك على أنها فضل الله عليك ومِنَّته ، ومن دعاء المسلم لربه : « اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت » .

ومن المكثرين من يحسب أنه جمع ماله بما أوتى من ذكاء ، ويقول كما قال قارون : « إنما أوتيته على علم عندى »[3] فلنفرض أنك عبقرى ، وأنك جمعت ثروتك بذكائك الخارق ، فمن منحك هذا الذكاء ؟ ومَيَّزك بتلك المقدرة ؟ .

إنه الله الذى ينبغى أن تردّ إليه ما عندك كله ، وهذا ماشرحه المؤمن الفقير لصاحبه المغرور «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله ! ! إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقا . . . »[4] ! !

وكان ما توقّعه المؤمن المنكسر ، فإن جوائح السماء هبطت على الجنة المزدهرة فجعلتها قاعا صفصفا ، وتركت صاحبها يصيح من الندم يقول : « ياليتنى لم أشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وماكان منتصرا »[5] .

من الذى أشرك به هذا المسكين ؟ لقد أشرك بالله نفسه التى بين جنبيه .

إنها الوثن الذى عبده ، لقد جعل إلهه هواه .

---

(١) الكهف : ٣٢ (٢) الكهف : ٣٤ (٣) القصص : ٧٨

(٤) الكهف : ٣٩ ، ٤٠ (٥) الكهف : ٤٢ ، ٤٣

الإنسان عادة حريص على مصلحته ويحسن الجرى وراء حاجته ، لكن هذا السعى قد يتورَّم ويربو ويسدّ عليه الآفاق فلا يعرف إلا مايريد ، ومايبقى لله مكان فى ضميره ولا فى سلوكه ! إنه هو الأول والآخر !!.

والحضارة الحديثة صنعت أجيالا من هذا القبيل ارتبطت بهذا التراب، فلا تبصر وراءه شيئا . . .

بل لقد استبعدت ذكر الآخرة من حسابها ، وجعلت التفكير فيها أو الحديث عنها لونا من الخرافة لايخوض فيه العقلاء . أو يخطر لهم ببال . .

فى هؤلاء يقول الله تعالى : «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا » [١] على أن الحياة الدنيا ـ مع انقضائها وانتهائها ـ ليست شرا محضا ، فقد يكون التمكين فيها من رحمة الله ، كما قال الله بعدما منح يوسف ـ عليه السلام ـ أرفع المناصب : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين » [٢] .

إن هذا التمكين قد يكون دعما للحق وعونا للضعاف وسندًا للمروءة ، كما قال عُرْوَة بن الورد :

أليس شديدا أن تلم مُلِمَّةٌ   وليس علينا فى الحقوق مُعَوَّلُ ؟

كما إن دراسة الأرض والسماء ينبوع دفاق يزيد الإيمان ازدهارا ، ويعرِّف الناس بربهم معرفة حسنة ، والقرآن الكريم بنى صدق الإيمان على التفكر الذكىّ فى ملكوت الله . .

على أن الله لم يحرِّم اليسار والغنى على عباده الصالحين ليختص بهما العباد المجرمين .

وهو لم يغضب على صاحب الجنة المغرور إن كانت له جنة أو جنان ، إنما غضب عليه لأنه كان ذا فكر سخيف ومنطق غبىّ ! .

مامعنى أن يقول : « ماأظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة !! ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا . . !! » [٣] . لماذا ؟ مكافأة على الكفر والتطاول على الله ؟ إن هذا الأحمق جدير أن يكون حطب النار فى الآخرة ، كما هو جدير بالحرمان فى الدنيا . .

وعلى ضوء هذا نفهم التعليق الإلهى على هذه القصة : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »[٤] .

إن المال والبنين كما يكونان زينة الحياة الدنيا يكونان عُدَّة النصر فى معركة التحرير والشرف،

---

(١) الكهف : ٤٥   (٢) يوسف : ٥٦   (٣) الكهف : ٣٥، ٣٦

(٤) الكهف : ٤٦

كما قال تعالى لبنى إسرائيل حين نصرهم على عدوّهم : « ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمْددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا »[1] وفى الحديث : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » .

حين تنهزم دوافع الفداء والجهاد أمام حب الدنيا تكون الدنيا مصيبة !! .

وعندما يغلب الشره والبخل عند وجود المال يكون المال نكبة .

أما صاحب المال الذى يساند به الإيمان وينفقه فى الجهاد فهو عابد رفيع الأجر .

ونحن ينبغى أن نفهم المرويات فى ذم الدنيا وألا نتجاوز بها حدودها .

ومن ذلك هذا الحديث الرقيق الذى يعين على العفة والعزة : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من كانت الآخرة همَّه جَعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ماقدِّر له ، فلا يمسى إلا فقيرا ، ولايصبح إلا فقيرا . وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب العباد تنقاد إليه بالود والرحمة . وكان الله بكل خير إليه أسرع » .

إن هذا الحديث شفاء من جنون الشَّرِه ، وعبادة الحياة ، والتعلق بالحطام ، ولايصُدُّ عن غنى يجىء مع التماسك والأدب .

مما يثير الأسى حول مستقبل الإنسان أنه ينسى ربه ، وتستغرقه مآرب الدنيا ، فلا يكاد يُعِدّ شيئا طائلا للقائه ، تكاد الآخرة تكون فى حسابه وهما وهى حق لا ريب فيه ! .

وفقدان الذاكرة على هذا النحو لايثمر إلا الخسار ، ولذلك اتجه السياق القرآنى إلى التذكير بيوم التلاق : « ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفًّا »[2] .

ولما كان أغلب الناس يغفل ويذهل ، وينسيه يومه الحاضر ما كان ويكون ، فهو يدهش للإحصاء الدقيق الذى يواجهه « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : ياويلتنا ! مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا »[3] .

ويوم الحساب يوم مفاجآت وتغابن ، فإن المشركين يوقنون بأنهم كانوا على خطأ ، والعصاة يشعرون بمدى تفريطهم ! .

---

(١) الإسراء : ٦

(٢) الكهف : ٤٧ ، ٤٨

(٣) الكهف : ٤٩

ويبدو أن العالم المعاصر سوف يبقى منخدعا بالإمهال الإلهي ، فلا يحدث توبة حتى يحاط به «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا »[١] .

وبعد القصتين السابقتين فى سورة الكهف تجىء قصة ثالثة : قصة موسى نبىّ بنى إسرائيل مع نبىّ آخر من عباد الله الصالحين اسمه « خضر » كما ذكرت ذلك السنة الشريفة .

والقصة فى نظرى تشرح حكمة شائعة هى « رب ضارة نافعة » أو حكمة أخرى مشابهة « لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » إننا فى هذه الحياة نعمل مانرى أنه الصواب ، وأنه النفع المحقق !! ثم نفاجأ بالأقدار تفد بنتائج أخرى قد تكون محزنة لنا ، أو مجلبة للسخط ، والأولى أن يستسلم المرء للقدر ، وينزل عند قوله تعالى : «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون »[٢] .

هل يعنى ذلك أن نفقد الثقة فى أعمالنا وأحكامنا ؟ لا ،أحكم خطتك واحشد الأسباب الصحيحة ودع مابقى لله !! .

هل يعنى ذلك أن نأذن بارتكاب شىء يخالف العقل والشرع بحجة أن العواقب غيب ؟ كلا . . فمن خالف الشرع والعقل حوسب وأوخذ ، ولاتسمع له حجة . .

وقصة موسى مع الخضر مسلك خاص ، تمّ بوحى أعلى ، فكلا الرجلين يؤدّى رسالة من ربّه كلّف بها .

وقد انتهى زمان الوحى والرسالات فمن اقترف عملا منكورا وزعم أنه مكلف به من الله فهو كاذب ، ووجبت عقوبته بمقدار ما اقترف وادَّعى ! .

وماحدث لموسى خاصة كان معاتبة من الله له ، لأنه فى غمرة تبليغ الدعوة سئل هل يوجد من هو أعلم منه ؟ فنفى ، وكان ينبغى أن يردّ العلم كلّه لله . . . فشاء الله أن يؤدبه بهذه القصةالغريبة ليشعر بأنه فوق كل ذى علم عليم ! .

وبدأت القصة مشيدة بخلقين عظيمين يحتاج إليهما الرجال الأبطال ، هما : العزم الواثق ، والاحتمال الطويل ، ذاك ماتتضح به الآية : « وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا »[٣] أى لن يهدأ لى نشاط حتى أصل إلى « الخضر» ولو طالت دونه أحقاب !! .

وموسى نبىٌّ من أولى العزم ، فليس بدعا أن تكون لديه هذه الشمائل ، وقد شكا عمر قديما

---

(١) الكهف : ٥٩ (٢)البقرة : ٢١٦ (٣) الكهف : ٦٠

من عجز الصالح وخيانة القوى ، والواقع أن الأعمال الكبار لاتتم إلا بقوىّ تقىّ، أما الطيبون الضعفاء فلا خير فيهم .

والتقى موسى والخضر ، وقال موسى له فى تواضع جمّ : « هل أتبعك على أن تعلِّمَن مما علمت رشدا »[1] ؟ وردّ الخضر مصارحا بما فى اتّباعه من مشقة ربما لايتحملها موسى : « قال إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا »[2] ؟ .

لكن موسى تعهد بالصبر والانقياد ، وسرعان مافقد صبره وانقياده عندما وجد الرجل يخرق سفينة ركباها لبعض شأنهما ، فاعترض هذا العمل المستنكر ! .

وتكرر الإنكار عندما تكررت الأعمال التى لايقرها موسى ، وشرحت الآيات الموضوع كله : «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا »[3] .

كان الملك المغتصب لايمر بسفينة صالحة إلا أخذها ، فلما وجد هذه معيبة تركها ، فكان خرقها سبب بقائها لأصحابها .

أما الغلام الذى قتله الخضر فكان طاغية كفورا ، وقد نجىّ الله أبويه من شره ، كما قال فى سورة أخرى : « آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا »[4] .

والمهم أن خضر قال لموسى آخر الأمر : « وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا »[5] .

هذه مهمات خاصة كلف الله بها واحدا من عباده الصالحين ، ولو أن أحدا قام بهذه الأعمال من تلقاء نفسه لكان خارقا لشرائع الله ، مفسدا فى الأرض ، فالغيوب لصاحبها جل شأنه ، وله أن يكلف من شاء بما شاء .

أما الذين يتبعون هواهم ويعتدون على غيرهم فلا ينجون من عقاب ! .

إن الخضر انطلق لتنفيذ مهمة خاصة كلفه الله بها ، ومنه استمدّ مشروعية مافعل . . ! ولايتاح ذلك لغيره أبدا . .

وقد يقال : هل خضر أفضل عند الله من موسى ؟ .

ونجيب : كلا ، فموسى واحد من المرسلين الخمسة أولى العزم الذين أخذ الله عليهم المواثيق بهداية البشر ، وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، ولايفضل هؤلاء أحد من الناس .

---

(١) الكهف : ٦٦ (٢) الكهف : ٦٧ ، ٦٨ (٣) الكهف : ٧٩
(٤) النساء : ١١ (٥) الكهف : ٨٢

والمزيّة التى ظهرت للخضر هنا لاتقدمه على موسى ، فإن المزية لاتقتضى الأفضلية ، ومكانة الرجل تجيء من مواهب كثيرة تلتقى فى شخصه ، لامن موهبة واحدة يكون فيها مبرزًا ، على حين يكون عاديًا فى بقية صفاته .

قد يكون المريض فى فراشه أحدَّ بصرا من عوّاده ، فهل يفضلهم بهذه الميزة ؟ .

إذا ذكر التديّن سبق إلى الأذهان الزهد فى الدنيا والبعد عنها ، والحق أن التدين المعزول عن الدنيا أو العاجز فيها لاخير فيه ، ولاجدوى منه .

وقد جاءت القصة الرابعة فى سورة الكهف لرجل ملهم أوتى الملك والعلم ، فكان تدينه نموذجا حسنا للصلاح والإصلاح ، أو للتقوى والتمكين فى الأرض ، هذا الرجل هو ذو القرنين .

ولايعنينا الاستيقان من أنه كان ملكا لليونان أو للفرس أو للصين أو لليمن ، وإنما يعنينا أن الله مهَّد له الطريق لأسباب القوة فسلكه ، وكان له ملك عظيم التقى فيه العلم والإيمان والحكمة والإنصاف : « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا . فأتبع سببا »[1] .

مافتح الله له باب خير إلا ولَجَهُ ونجح فى مرضاة ربّه .

وخرج الرجل يسيح فى الأرض بما آتاه الله من قوى ، حتى انتهى إلى شاطئ لا أرض بعده ، ورأى قرص الشمس يسقط فى اللجج ـ كما تتخيل العين ـ وهناك وجد قوما أخلاطا فيهم المحسن والمسيء فأوحى الله له : « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا . قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى »[2] .

وهذه سياسة حسنة لحاكم عادل . .

وفى سياحة أخرى نحو المشرق وجد قوما متخلفين لايسترهم من الشمس شيء ، ولعل ذا القرنين ترك بين هؤلاء من يرفع مستواهم ويصلح أحوالهم . .

وفى سياحة أخرى بلغ بين السدين ـ سلاسل من الجبال ـ تعيش فيها شعوب يشبهون من سبقهم فى التخلّف والعجز ، لكن جيرانهم يغيرون عليهم وينالون منهم : « قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا ـ أجرا ـ على أن تجعل بيننا وبينهم سدا »[3]؟ .

فأبدى لهم ذو القرنين أنه مستغن عن مالهم ، وأن ماآتاه الله خير مما لديهم ، وطلب منهم أن يعاونوه فى إقامة سد عظيم يحجز عنهم الأعداء « فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما »[4] .

(١) الكهف : ٨٣ ـ ٨٥ (٢) الكهف : ٨٦ـ٨٨ (٣) الكهف : ٩٤
(٤) الكهف : ٩٥

وظهرت عبقرية ذى القرنين الهندسية فقد بنى خطا من الاستحكامات العسكرية ذوَّب فيه الحديد والنحاس والصخور ، أعلى بناءه ، وقوّى أسفله ، وساوى بين حافّتى الجبلين ، وأنشأ بذلك حاجزا يصدّ الأعداء « فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا . قال هذا رحمة من ربى» [1] .

إننى عندما أقرأ خبر هذا الرجل أشعر بالحزن ، لأن الخبرة الفنية التى أبداها لاتُعرف اليوم بين المسلمين ، لقد انفرد الأجانب بها ، وأمسُو ا الخبراء المتخصصين فيها . .

إن المهارة فى شئون الحياة صارت لديهم ملكة راسخة .

والغريب أننا بدل أن نتعلم الإبداع فى شئون الدنيا تعلمنا الابتداع فى شئون الدين ، فأتينا بأمور ما أنزل الله بها من سلطان .

وكان من وراء ذلك فوضى عقلية وخلقية ، أخرتنا فى معاشنا ومعادنا . . . !!

ويأجوج ومأجوج جيل من الهمج لايضبطهم وحى ولاتحكمهم شريعة ، وهم يعيشون فى الصين ، ويبدو من جرس الكلمة أنها صينية الأصل .

وقد ذكر القرآن الكريم فى هذه السورة أن مدنا كثيرة سوف تعذّب آخر الزمان : «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا» [2] .

كما جاء فى سورة الإسراء : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا . . . » [3] .

فهل ذلك على يد يأجوج ومأجوج ؟ أو يصادف خروجهم ؟ قال تعالى فى سورة الأنبياء : «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق ، فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا . . . » [4] .

ذلك . وقد جاء ذكر يأجوج ومأجوج فى التوراة كما جاء فى القرآن الكريم . .

وتختم سورة الكهف بالمعانى التى ذكرت أولها ، فالسورة كما أوضحنا لتقرير عقيدة التوحيد ، ونفْى أن يكون لله أولاد أو أنداد « كبرت كلمة تخرج من أفواهم . . . » [5] وهنا يقول : «أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا » [6] .

---

(١) الكهف : ٩٧ ، ٩٨ — (٢) الكهف : ٥٩ — (٣)الإسراء : ٥٨

(٤) الأنبياء : ٩٦ ، ٩٧ — (٥) الكهف : ٥ — (٦) الكهف : ١٠٢

وفى أول السورة يبين المولى سبحانه أن الناس خلقوا لإحسان العمل ، وتلك وظائفهم فى الحياة « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا »[١]. وهنا يقول : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه . . . . »[٢].

وبعد تقرير جزاء المحسن والمسيء تجيء آية تتحدث عن كلمات الله وهو يحيى ويميت ويوجه الكائنات كلها وفق مايريد ، إنه يأمر فيتحرك العالم أجمع من إنسان وحيوان ونبات ، وتأخذ الموجودات أوصافها وأشكالها وأعمارها ، لا فى لحظة واحدة ، بل على امتداد الزمان « كل يوم هو فى شأن »[٣].

هل يقدر أحد على إحصاء ذلك ؟ مستحيل حتى لو كانت البحار مدادا والأشجار أقلاما ! .

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولوجئنا بمثله مددا»[٤] وكلمات الله هنا تعنى بداهة ما توجد به الأشياء ، أو تفنى ، وماتتحرك به أو تسكن ! .

وختمت السورة بمعنى نبيل : مادام الرب واحدًا ، فليكن هو وحده المقصد .

ماذا يجدى غيره ؟ ولماذا نتجه إلى مالايضر ولاينفع .

إن جماهير من العميان اتخذت مع الله ـ أو من دونه ـ شركاء هم فى الحقيقة أصفار وأوهام .

والتوحيد الصحيح أن تفرد الله بالعبادة والدعاء « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا »[٥].

---

(١) الكهف : ٧ (٢) الكهف : ١٠٣ـ١٠٥ (٣) الرحمن : ٢٩

(٤) الكهف : ١٠٩ (٥) الكهف ١١٠

سورة مريم

تمتاز فواصل الآيات فى سورة مريم بأن أغلبها جاء على حرف الياء المشدّد المنصوب ، إلا الصفحة الأخيرة ، فقد جاء على حرف الدال المشدد المنصوب .

وقد لوحظ أن اسم الرحمن من أسماء الله الحسنى تكرر فى هذه السورة ست عشرة مرة ، نحصيها فيما يلى :

(١) « إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا » (١) لأن التقىّ هو الذى يخاف الله ويهاب عصيانه .

(٢) « إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا » (٢) وكان الامتناع عن الكلام نوعا من الصيام .

(٣) « ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا » (٣) .

(٤) « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » (٤) .

(٥) « . . . وممن هدينا واجتبيْنا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجدا وبكيا » (٥) .

(٦) « جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا » (٦) .

(٧) « . . . ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشدّ على الرحمن عتيا » (٧) .

(٨) « قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدًّا . . . » (٨) .

(٩) « أطَّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا . كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدًّا » (٩) .

(١٠) « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا » (١٠) .

(١١) « لايملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا » (١١) .

(١٢) « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّ ! » (١٢) .

---

(١) مريم : ١٨ — (٢) مريم : ٢٦ — (٣) مريم : ٤٤ — (٤) مريم : ٤٥

(٥) مريم : ٥٨ — (٦) مريم : ٦١ — (٧) مريم : ٦٩ — (٨) مريم : ٧٥

(٩) مريم : ٧٨ ، ٧٩ — (١٠) مريم : ٨٥ — (١١) مريم : ٨٧ — (١٢) مريم : ٨٨ ، ٨٩

(١٣) « أن دعوا للرحمن ولدا »[١] .

(١٤) « ومَا ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا »[٢] .

(١٥) « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا »[٣] .

(١٦) « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »[٤] .

ومن اللطائف أن تفتتح السورة بكلمة الرحمة « ذكر رحمة ربك عبده زكريا»[٥] ، وقد تكررت الكلمة أربع مرات خلال السورة ، وهى تتحدث عمن أنعم الله عليهم ، ولا عجب فالإنعام نابع من الرحمة ، وكل شىء يتعرض الناس له فهو نابع من حكمة عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها .

والسورة من القرآن النازل بمكة المكرمة ، ولعلها نزلت فى السنوات الأولى ، قبل الهجرة إلى الحبشة ، وقد تحدثت عن ولادة عيسى بن مريم ، وكشفت عن الإعجاز الإلَهى فى تكوين هذا النبى الكريم ، لكنها جعلت هذا الإعجاز بين يدى قصة زكريا وابنه يحيى .

لأن ولادة يحيى كانت هى الأخرى معجزة ، فقد كان الوالد شيخا وهن عظمه ، وكانت الوالدة عجوزا عقيما ، فمن أخصب العاقر وأحيى الشيخ ؟ ومنّ بالولد ؟ .

إنه جلّ شأنه الذى فعل ذلك ، فليس يعجزه أن يجعل البكر تنجب دون أن يمسّها أحدا ! .

وهذا الترتيب بين القصتين سبق ذكره فى سورة آل عمران المدنية . . .

وقد قلنا : إن خالق الأسباب لاتحكمه الأسباب ، وقد خلق عيسى كذلك ليقول للناس : «إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت . . . »[٦]

ولماذا حرص زكريا على أن يكون له غلام ؟ على حين يرضى مؤمنون كثيرون أن يعيشوا بلا أولاد؟ إن حرصه على سلامة القيادة الروحية لبنى إسرائيل هى السبب ، فقد كان له أقرباء يتطلعون إلى الزعامة وهم لايصلحون لها ، فسأل الله أن يهب له من يسدّ الطريق على هؤلاء ، ويقود بنى إسرائيل قيادة صحيحة « وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا »[٧] .

ورزقه الله بيحيى الذى جاء بعد ثلاث ليال من التسبيح والتحميد والانقطاع إلى العبادة : «فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا . يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا »[٨] .

---

(١) مريم : ٩١ (٢) مريم : ٩٢ (٣) مريم : ٩٣ (٤) مريم : ٩٦
(٥) مريم : ٢ (٦) مريم : ٣٠ ، ٣١ (٧) مريم : ٥ ، ٦ (٨) مريم : ١١ ، ١٢

أما معجزة ابن مريم وأمه فقد حكتها السورة المباركة ، والحق أن كلام عيسى فى المهد برهان ساطع على براءة أمه من بهتان اليهود « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا »[1] .

غير أن ولادة عيسى على هذا النحو كانت السبب فى وجود عقيدة أخرى ، فقد قال بعض الناس : صحيح أنه ليس له أب من البشر ، وإنما أبوه هو الله نفسه ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه ـ مثل أبيه رب ثان ! .

ويوجد إله ثالث يكمل سلسلة الآلهة هو الروح القدس الذى نفخ فى مريم . وهذه هى الأسرة المقدسة !! .

ولما كان هذا الكلام لم يُعهد فى دين سبق ، ولم يجر على لسان أحد المرسلين ، فقد سُمى العهد الجديد ! .

والإنسان يتساءل : هل الأب والابن والروح كلمات مترادفة لذات واحدة ؟ كما يقول العرب : أسد ، وضيغم ، وغضنفر ، لحقيقة واحدة ؟ كلا ، إن لكل منهم ذاتا خاصة . ومع ذلك فالكل واحد ! .

يقول آخرون : بل ذات وصفتان ! لكن الصفة لاتتجسد وتصلب ثم تصعد لتدين العباد والأب ينظر ! هل هم ثلاثة أثلاث يكونون واحدا صحيحا ! كلا ، كل الفروض يأباها العقل .

والصحيح أن الله واحد ، وأن عيسى عبده ورسوله كسائر العباد المرسلين ، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فى عشرات السور : « وإن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين »[2] .

إن الخلاف ظل وسوف يظل محتدما إلى أن يجمعنا الله يوم المشهد العظيم ، عندئذ يعلم الرؤساء والأتباع أن الله واحد ، وأنه ليس له أولاد ، : لا بنون ولا بنات ، وأن ماعداه من مخلوقاته عبد له ، وأنه هو الذى يدين العباد يوم الدين .

وإذا كان البعض الآن ينظر ولايرى ، ويسمع ولايعى ، فإن الحواس هناك ستسمع الهمس والعيون هناك سترى الذرَّ « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا . . . »[3] .

بعد الكلام عن عيسى بن مريم ، وكيف دعا الناس إلى توحيد الله ، جاءت قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذى اشتبك مع الوثنية فى حرب طويلة ، وبارزها فى مواطن عدة .

---

(١) مريم : ٣٠ ، ٣١ (٢) مريم : ٣٦ ، ٣٨ (٣) مريم : ٣٨

وإنك لتجد فى الحوار الذى دار بين إبراهيم وأبيه المشرك طبيعة الدعوة الإسلامية ، وطبيعة الأحزاب التى تناوئها .

فإبراهيم يناشد أباه أربع مرات أن يدع الأصنام ، ويسلم لله وجهه ، فى أسلوب يسيل وداعة وأدبا ، وآخر مناشداته : « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا »[1] فيكون الرد الجافى القاسى « أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا »[2] .

تهدد ابنه بالرجم إن بقى على العقيدة الصحيحة ، وطرده بعيدا عنه . .

وقد اعتزل إبراهيم أباه وقومه فآنس الله وحشته ، وجعل النبوة فى ذريته !« فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا »[3] . .

وذكرت السورة بعد ذلك عددًا من الأنبياء وما أفاء الله عليهم من نعماء ، والأنبياء خلاصة البشرية العارفة بالله ، والمعرِّفة به ، وسيرتهم نموذج يُحتذى . .

ولاشك أن الذين خالطوهم واستفادوا منهم تأثروا بهم نفسيا وعقليا ، فكانوا أرقى من غيرهم وأطهر ، ولذلك يقول محمد إمام الأنبياء : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

أما الخلوف التى تجىء من بعد ذلك ، فقد ابتعدت عن الضوء وخبطت فى ظلام . ! « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا »[4] .

إن الصلاة معراج يصل العباد بربهم ، ويغسل أرواحهم من الآثام ، ويكسبهم حصانة ضدها ، فمن انقطع عن الله ، واستهوته الشياطين ، ورتع فى الرذائل فقد هلك .

وينضم إلى هذا العوج فى السلوك عوج فى الفقه والحديث عن الله ، ولذلك قال الله فى سورة أخرى : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا »[5] .

أى : يتبعون الدنايا ، وينتظرون المغفرة ، وتلك خصائص التدين الفاسد ، ومصير أصحاب البوار « إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا »[6] .

وإذا كانت الخلوف من أتباع الأنبياء قد زاغت ولم تنتفع بمالديها من وحى فإن هناك أمثالهم من الملاحدة الذين يزحمون القارات ، لايعرفون ربا ، ولا ينتظرون آخرة ، وما ارتفعت أبصارهم إلى السماء يوما . .

---

(١) مريم : ٤٥ (٢) مريم : ٤٦ (٣) مريم : ٤٩

(٤) مريم : ٥٩ (٥) الأعراف : ١٦٩ (٦) مريم : ٦٠

يتحدث القرآن الكريم عن هذا النوع : « ويقول الإنسان أإذا مامتُّ لسوف أخرج حيا . أو لايذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا . فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا . ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا . . . »[(١)] .

إن الكافرين من الأولين والآخرين ، والهمل الذين عاشوا بُلْها لايدرون شيئا ، هؤلاء كلهم يجثون أمام الخالق فينفذ فيهم حكمه : « . . . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا »[(٢)] ، فلن يخلد فى النار إلا ظلوم كفار . . .

والخطاب فى الآية متجه إلى منكرى البعث ، إذ لايصحّ إلا هذا ، فإن المؤمنين الصالحين لن يردوا النار أبدًا وهى كما وصف الله تعالى : « وبئس الورد المورود »[(٣)] .

ومن المؤمنين الأكابر من لايحاسب على شىء . لأنه سبق سبقا بعيدا .

والمؤمنون عامة يظفرون بالنجاة ، ويأمنون يوم الفزع : « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا »[(٤)] .

وذكرت سورة مريم بعض المواقف لمشركى مكة حين عرضت عليهم دعوة الإسلام ، وهى مواقف تكشف عن غباء وادعاء ! .

ماذا تقول لامرئ تناقشه بالحجة فيقول لك : كيف تعارضنى وثوبى أجمل من ثوبك ؟ أو وقصرى أعلى من دارك ؟ « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟؟ »[(٥)] .

وكان الجواب الإلٰهى « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا »[(٦)] (منظرا) .

إن هذا الكلام إفلاس فى المناظرة . . . ومثله قول مشرك مماطل عليه دين لمؤمن ضعيف : القنى فى الآخرة أقض لك دينك ، سأكون هناك ذا مال وولد !! « أفرأيت الذى كفر بآياتنا ، وقال : لأُوتَيَنَّ مالا وولدا . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟؟ »[(٧)] . إنه كصاحب الجنتين فى سورة الكهف ، يكفر بلقاء الله ثم يقول : إذا كان هناك لقاء فسأكون أحسن حالا وأكثر مالا !! «كلا سنكتب مايقول ونمدّ له من العذاب مدًّا . ونرثه مايقول ويأتينا فردا »[(٨)] متجردا عريان لايملك شيئا . .

وفى القرآن النازل بمكة حملة هائلة على عقيدة أن لله ولدا ، ذكرا كان أو أنثى ، وهذه الحملة

---

(١) مريم : ٦٦ـ٦٩ (٢) مريم : ٧٠ (٣) هود : ٩٨ (٤) مريم : ٧٢
(٥) مريم : ٧٣ (٦) مريم : ٧٤ (٧) مريم : ٧٧ ، ٧٨ (٨) مريم : ٧٩ ، ٨٠

تحرف المشركين من عبدة الأصنام ، كما تضم إليهم كل من زعم أن لِلَّه جزءا من عباده ، أو أن له ابنا من مخلوقاته . .

الذى يجب أن يعرفه الكلّ أن ما عدا الله من إنس وجن وملَك عبد له لايملك لنفسه نفعا ولاضرا أمامه ، فكيف يجدى على غيره ؟ .

واسمع إلى الآيات تقصف كالرعد « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا ، وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . . . »[1] .

والله سبحانه يبغض من أشرك به ، ولا يغفر له جريمته ، ويقبل الموحدين ويُقبل عليهم بالود والرحمة ، وماجعل إنسان التوحيد قاعدته ثم انطلق فى دروب الحياة مرتبطا به إلا أحبه الله ، وجعل أهل السماء والأرض يحبونه « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »[2]

وفى الحديث : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله سبحانه إذا أحبّ عبدا دعا جبريل فقال : إنى أحب فلانا فأحبّه . فيحبّه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبّوه ، فيحبّه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض »!![3] .

قال أحد الصالحين : ما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدًّا »[4] .

---

(١) مريم : ٨٨ـ ٩٢ (٢) مريم : ٩٦

(٣) الحديث متفق عليه ، انظر اللؤلؤ والمرجان ص ٧١٣ رقم ١٦٩٢ فقد أخرجه فى كتاب (البر والصلة والآداب) باب : إذا أحب الله عبدا حببه لعباده : عن أبى هريرة .

(٤) مريم : ٩٧

سورة طه

طه : حرفان من حروف الهجاء ، وليسا اسما للنبىّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يرد ذلك فى حديث صحيح ! وهما من الحروف المفردة التى بدأت بها سور شتى ، والله أعلم بمراده منها! .

وقيل المراد إشعار العرب بأن القرآن كلام مكوّن من هذه الحروف التى تألفونها ، ومع ذلك تعجزون عن الإتيان بمثله . . .

وقد نزل القرآن الكريم وحيا من السماء ، والصبغة السماوية ظاهرة فى نظمه وهدفه .

ولايوجد له نظير فى إثبات الوجود الأعلى والوحدانية المطلقة ، والقارئ النزيه يشعر بأن القرآن يسوق الناس سَوْقاً إلى ربهم ، ويُشرب قلوبهم خشيته ، ويغمر عقولهم بنوره ، ويريهم الآخرة رأى عين .

والإنسان الذى استقبل القرآن زاكى البصيرة ، نقىّ الفطرة ، مشهور فى الجاهلية الأولى بالصدق والأمانة ، فما جرؤ ألدُّ أعدائه أن يغمز شرفه ، أو يقدح فى سيرته .

وقد ظن النبىّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن قومه مُصدِّقوه حين يتلوه ، لأنه ماكذب قط ! بيد أن تعصّبهم لمواريثهم حملهم على رفض ماجاء به ، ونسبوه إلى الافتراء والجنون ! .

والرجل الشريف عندما يتهم بما هو منه براء يحزن ويأسف ، وقد يؤثر الضيق فى صحته وينغّص حياته . وذلك ماجعل رب العالمين يرحمه ويواسيه : لماذا تشقى بتكذيبهم ؟ إنما أنت مذكر !! من تبعك نجا ، ومن رفضك هلك . . « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا . الرحمن على العرش استوى . . . »[1] .

وهذه الأوصاف المتتابعة فى إجلال الله وإعظامه ترتد إلى القرآن النازل من لدنه فترفع قدره ، وإلى الرسول المبلغ له فتعلى شأنه . . .

والتبليغ وظيفة شاقة ، ومواجهة المكذبين الجفاة أمر مُعْنِتٌ ، وتصبيرا للنبى على لأوائه قيل له : لست وحدك الذى كلف بالتبليغ ومكابدة الخصوم المستكبرين ، فقبلك موسى تحمل العنت فى ملاقاة الفراعنة ، وقيادة بنى إسرائيل ، وهم شعب غليظ الرقبة ، قاسى الطباع « وهل أتاك

(١) طه : ٢ ـ ٥

حديث موسى : إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلّى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . . . »[1].

وقصة موسى تملأ أكثر السورة ، وهى تسرد أولا كيف حاول هداية فرعون ، ثم لقاءه مع السحرة ، وكيف انتصر عليهم . .

وتسرد ثانيا كيف ساس بنى إسرائيل ، والمتاعب التى تحملها من قومه .

ومع أن قصة موسى تكررت بضع عشرة مرة فى الكتاب الكريم إلا أن سياقها يختلف اختلافا كبيرا فى شتى مواضعه ، وأنت واجد فى كل موضع مالا تجده فى الموضع الآخر .

فهنا يصف موسى عصاه وصفا فيه إطناب السعيد بالحديث مع الله سبحانه : « قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى »[2] ولا يوجد هذا الوصف فى سورة أخرى . .

وانظر إلى وصف موسى لربه هنا ، وهو يحدث عنه فرعون « قال : فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . . . »[3] إن هذا الوصف فريد هنا . . . لم تشتمله قصة أخرى .

وكذلك اطّرد هنا حديث السحرة عن إيمانهم بالله وكيف تشبثوا به ، وصبروا على آلامه : « إنا آمنَّا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنّم لايموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى »[4] . . .

وأعقب قصة موسى حديث عن الآخرة يقفّ له شعر الرأس ، ويقذف بالرعب فى الأفئدة : «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا . لاترى فيها عوجا ولا أمتا » إلى أن يقول « وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما . . . »[5]

إن هذا الوصف يزلزل كبرياء الكفر ، ويحمل الناس حملا على الإيمان بالله والاستعداد للقائه ، وقد لفت نظر العلماء أن مادة الذكر والنسيان وردت فى هذه السورة فى عشرة مواضع :

---

(١) طه : ٩ ، ١٠ (٢) طه : ١٨ (٣) طه : ٤٩ ـ ٥٣

(٤) طه : ٧٣ ـ ٧٥ (٥) طه : ١٠٥ ـ ١١١

(١) فى قوله تعالى : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى »[١] فالوحى تذكرة وتبصرة ، ومحو للغفلة والذهول . . .

(٢) «إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى »[٢] وإقام الصلاة : أداؤها فى جماعة تصطفّ لها ، وتستعد بَدَنياً ونفسيا لتسبيح الله وتحيته ، ففى الحديث «تسوية الصفوف من إقامة الصلاة » .

(٣) ويقول موسى بعد ماطلب هارون شريكا له فى أعباء الرسالة : « وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا »[٣] .

(٤) ويقول الله لموسى بعدئذ : « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى »[٤] .

(٥) ثم يجعل الغاية من الإرسال أن يفيق فرعون من غشيته ، ويتوب إلى ربه « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »[٥] .

(٦) ويصف موسى علم الله بالكائنات فى الأزل والأبد : «قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى »[٦] .

(٧) والطريف أن السامرى يصف العجل الذى صنعه ، ويقول معه المخدوعون به: « . . . هذا إلهكم وإله موسى فنسى »[٧]!!

(٨) وفى التعقيب على قصة موسى مع قومه يقول الله لنبيه : « كذلك نقصّ عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا »[٨] .

(٩) ويقول الله تعالى فى صفة القرآن الكريم وسر نزوله : «وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا »[٩] .

(١٠) ثم يقول فى إخراج آدم من الجنة بعدما كان مكرما فيها « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما »[١٠] .

ثم يجىء هذا الإنذار العام للأفراد والجماعات « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى »[١١] .

فسورة طه فى سياقها كله تعرض لخطورة الغفلة عن الله ، والبعد عن توجيهه .

إن النسيان العارض لايخاف على صاحبه ، فسرعان مايتذكر ، إن المخوف أن ينسج النسيان غشاوة طامسة تعمى معها البصيرة ، ويطيش بها الهوى ، ويصير المرء بها حطبا لجهنّم .

---

(١) طه : ٢ ، ٣ (٢) طه : ١٤ (٣) طه : ٣٢_٣٥ (٤) طه : ٤٢
(٥) طه : ٤٤ (٦) طه : ٥٢ (٧) طه : ٨٨ (٨) طه : ٩٩ ، ١٠٠
(٩) طه : ١١٣ (١٠) طه : ١١٥ (١١) طه : ١٢٤ _ ١٢٦

والقصة الثانية فى سورة طه هى قصة آدم . وقد بدأت بإظهار العلة فى انهياره أمام إبليس ثم طَرْدِه من الجنّة ، لقد غامت رؤيته وضعفت إرادته ، أو بتعبير القرآن الكريم « فنسى ولم نجد له عزما »(١) .

إنه كان صاحيا واعيا عندما نُهِىَ عن الأكل من الشجرة ، لكنه على مرّ الأيام أخذ ينسى ، وتنفكّ إرادته ، وتشتدّ رغبته ، ويستمع إلى الوساوس الكاذبة التى بثّها إبليس فى نفسه ، خلود طويل ، وملك عريض إذا أكل من هذه الشجرة : « هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لايبلى »(٢) .

وأقبل آدم على الشجرة المحرمة يأكل منها ، وأغرى امرأته فتبعته وطُردا جميعا ، والسياق القرآنى جازم فى أن آدم هو المسئول ، وذنب امرأته أنها لم تقاومه وتنصحه .

وقد فقد آدم النعيم وفقدتْه معه امرأته ، ونزلا معا إلى الأرض ليبدءا حياة مليئة بالمعاناة والشدائد . .

والقصة الأولى تتكرر كل يوم فى حيَوَاتِ الأبناء ! إن النسيان يغلبهم يجىء بعده السقوط ، والجنة لايُرشَّح لها إلا ذاكر واضح الرقابة لله ، عازم لاتنحلّ عقدته أمام المغريات ! .

ومن فضل الله أنه فتح أبواب التوبة أمام العاثرين حتى لايحرموا رضاه إلى الأبد إذا زلّت منهم الأقدام ! فأما الذاهلون عن الله الصادّون عن سبيله فلهم جزاء آخر « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى »(٣) .

ومع أن الدنيا ليست دار الجزاء إلا أن الله سبحانه قد يعجل للأشرار بعض العقاب ، كما يعجل للأخيار بعض الرضا ، عدلا منه وفضلا . .

وننظر إلى آخر السورة فنراه متصلا بأولها اتصالا وثيقا ، هؤلاء الذين آذوا رسول الله وملأوا بالحزن قلبه ، ألايخشوْن المصير الذى انتهى إليه أسلافهم ؟ « أفلم يَهْدِ لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » !!(٤) .

إن المعركة محتدمة بين الحق والباطل من بدء الخليقة .

ومع أن حضاراتٍ بادت بما اقترفت من آثام ، ومع أن الحق لم تخف معالمه مع ضراوة الحملات التى شُنَّتْ عليه ، فإن الأعقاب لم يرعووا عن غوايتهم ، ولم يتركوا ألوية الهدى تسير ! .

ومع قصر حياتى بالنسبة إلى الزمان الطويل فقد رأيت مصارع لشهداء ماتوا كىْ تبقى الحقيقة ، ورأيت دولا لطواغيت نسوا الله والمرسلين ، بيد أن الحياة كرٌّ وفرٌّ ، ومهما طالت الخصومة

---

(١) طه : ١١٥ (٢) طه : ١٢٠ (٣) طه : ١٢٤ (٤) طه : ١٢٨

فالبقاء للأصلح « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »[١] .

وقد وضع الله سننا لهذا الصراع الدائم ، لاتلين مع عجلة المعجلين ، ولاتطيش مع غرور المعتدين ، وهذا معنى قوله : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما ، وأجل مُسمًّى »[٢] إن هناك نظاما مضت به السنن العليا لايلين ولايزيغ .

ثم اتجه الحديث بعد ذلك إلى النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يواسيه ويسلّيه ، بم ؟ بالصبر وبتسبيح الله وتحميده ، وهذا يشبه ختام سورة الحجر « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بمايقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين »[٣] والاستغراق فى الحق يضيّق المكان أمام الباطل فلايبقى له متّسع يستقر فيه ، ولذلك قال الله لرسوله هنا : « فاصبر على مايقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى »[٤] . أى حتى لا تشقى من آلام التكذيب الذى يلقاك به الكافرون .

والمرسلون ـ وَحَمَلَةُ الدعوات ـ لا مَسْلاة لهم إلا فى توكيد علاقتهم بالله واستمداد الأنس منها . . « ولاتمدَّن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه . . . »[٥] .

ربما كان الكافرون والعصاة أوفر حظوظا فى الدنيا وأكثر استمتاعا بها ! فلا قيمة لهذا ولا اعتداد به ، فمصيره الهلاك ، وقد سبق قول الكافرين مفتخرين بما أوتوا : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا . وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا »[٦] وقد حكت السنة الشريفة أن عمر ـ رضى الله عنه ـ تألم حين رأى عيدان الحصير مطبوعة على جلد رسول الله وهو نائم فى فراشه الخَشِن ، وتذكر متعة كسرى وقيصر فى الأثاث الفاخر والدنيا العريضة .

ولكن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفهمه أن هؤلاء قوم عُجِّلَت لهم طيباتهم فلا نأسى عليها «ورزق ربك خير وأبقى »[٧] .

والأفضل والأشرف أن تنار البيوت بأضواء العبادة وطهرها . وأن يسودها جو التقوى والإقبال على الله ، فيخرج أهلها منها وهم يحملون للناس الأدب والعفاف ، لذلك قال الله لنبيّه : « وأْمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى »[٨] .

ورجالات الإسلام لاينافسون إلا فى المكارم ، ولاتصدِّر بيوتهم للناس إلا الأسوة الحسنة .

والدهماء تشغل نفسها بما ضُمِنَ لها من رزق تكاد تموت وراءه من الهمّ ، ولا تكترث بما كلفت به من واجبات ، وهذا ـ كما قال ابن عطاء ـ من انطماس البصيرة . . .

---

(١) الرعد : ١٧ (٢) طه : ١٢٩ (٣) الحجر : ٩٧ ، ٩٨ (٤) طه : ١٣٠
(٥) طه : ١٣١ (٦) مريم : ٧٣ ، ٧٤ (٧) طه : ١٣١ (٨) طه : ١٣٢

وعاد الكلام مرة أخرى إلى مشركى مكة فذكر تطلّعهم إلى معجزة تقنعهم بصدق الرسول ! ماذا يريدون ؟ أن ينقلب الصفا ذهبا مثلا ؟ ولو انقلب ما آمنوا ، سيتخطفون سبائكه وينفقونها فى الملذات !! .

لقد جاءتهم المعجزة الدامغة المُجْدية فما أحسنوا النظر فيها « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى » [(1)] ؟ إن الله خصّهم بكتاب جمع فيه كل الحكم التى تناثرت على ألسنة الأنبياء الأولين ، فهلاّ انتفعوا بها ؟ أليست لهم عقول؟ .

وإذا أخذهم الله بضلالهم وأنزل بهم العذاب ، صاحوا : ماجاءنا من نذير !! هلا جاءنا من يوقظنا من سباتنا ؟ لقد جاءكم نذير مبين فَتَصَامَمْتُم عن سماعه ، فانتظروا العقبى « قل : كل متربص فتربّصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السّوىّ ومن اهتدى » [(2)] .

---

(1) طه : ١٣٣ (2) طه : ١٣٥

سورة الأنبياء

سورة الأنبياء من أواخر مانزل فى العهد المكى ، وسمِّيت كذلك لأنها تضمنت أسماء ستة عشر نبيا مع إشارة وجيزة إلى تاريخهم ، وإن كان الكلام قد طال عن إبراهيم وحده .

وفى السورة مايشير إلى أن المرسلين من الرجال ، فهم أقدر على حمل الأعباء الجسام ومقارعة صناديد الكفر : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون»[1] .

ومن العلماء من يسلك مريم وأم موسى فى عداد الأنبياء ، وإن لم يَكُنَّ حملة رسالات !! .

ومطلع السورة يدل على أن مشركى مكة كانوا موغلين فى الضلال ، وعبادة الدنيا .

كانت معرفتهم بالله غامضة ، ومعرفتهم بشركائه الموهومين قوية ، وكانوا ينكرون البعث والجزاء ، ولا يحيون إلا ليومهم الحاضر .

وصوّرت السورة ذلك فى قوله تعالى : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . مايأتيهم من ذكر من ربِّهم مُحدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم . . »[2] وقد ردّ القرآن على منكرى البعث هنا بأدلة شتى ، منها قوله : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين »[3] لابد من حساب دقيق على مانقدم ونؤخر ، وما أحسن قول المعرى :

خُلق الناس للبقاء فضلّت ... أمة يحسبونهم للنفاد . . !
إنما ينقلون من دار أعمـ ... ـال إلى دار شقوة أو رشاد . . !

وقد استدل القرآن على البعث بالدليل البديهى على جوازه وهو أن خالق العالم أوّلا يستطيع إفناءه و إعادته ثانيا : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى . . »[4] .

وأغلب العلماء يقررون مايسمّى بنظرية السديم ، وهى تقوم على أن الكواكب كانت جِرْما واحداً ثم تبعثرت ـ بصنع الله ـ على هذا النحو المشاهد ، وأخذ كل كوكب مداره ! .

والغريب أن باطن الأرض ملتهب ، وأن القشرة التى نعيش عليها ـ وهى إطار ذلك اللهب

(١) الأنبياء : ٧ (٢) الأنبياء : ١ : ٣ (٣) الأنبياء : ١٦ (٤) الأنبياء : ٣٠

المصهور ـ ملآى بالماء الذى يحيا به كل شىء وترفّ به الزروع والزهور ! ما أغرب هذه القدرة «وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون »[1] . ولكن إنكار البعث شائع فى الأولين والآخرين . .

والناس فى عصرنا الحاضر سكارى بخمرة الحياة الدنيا فما يفيقون منها ، ولايسيغون كلاما عن اليوم الآخر ، بل لعلهم يسخرون منه « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . لو يعلم الذين كفروا حين لايكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلايستطيعون رَدَّهاولاهم يُنظرون »[2] .

ثم بين سبحانه أن الحساب فى الآخرة دقيق ، لاتجاوز فيه ولاتفريط ، لاوكس ولاشطط «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين »[3] .

والمشركون يضمّون إلى استبعاد البعث تكذيبهم للنبىّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ واتهامه بالسحر والافتراء « وأَسرُّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم »[4] ؟ وهذه الكلمة تخفى وراءها ضيق الناس بكل مَنْ آثره الله بموهبة جليلة أو اختصاص كريم ! .

إن المرسلين يجب أن يكونوا بشرا مُجانسين لنا حتى يمكن الاقتداء بهم والأخذ عنهم ، بشرا يحسُّون أشواقنا وآلامنا ، ويتعرضون بأبدانهم وغرائزهم إلى الابتلاء والمجاهدة ، كيف يتعلم البشر التسامى والتطهّر من ملك نزل من السماء لن تكون له زوجة أو ولد ، ولن يتَعَرَّض لما يضحك ويبكى . . .

وقد طلب المشركون ـ ليؤمنوا ـ معجزة مادية قالوا : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون »؟[5] .

إنهم لن يؤمنون ولو جاءتهم كل آية كما قال فى سورة أخرى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »[6] وسينتهى العناد بهؤلاء إلى الهلاك . . .

وينبه الله سبحانه العرب إلى أنه اختار محمدا منهم ليرفع شأنهم فى العالمين ، ويجعلهم أصحاب رسالة تحوّلهم من رُعاة للغنم إلى رعاة للأمم : « لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون»[7] .

---

(١) الأنبياء : ٣١ (٢) الأنبياء : ٣٨ـ ٤٠ (٣) الأنبياء : ٤٧ (٤) الأنبياء ٣

(٥) الأنبياء : ٥ ، ٦ (٦ الحجر : ١٤ ، ١٥ (٧) الأنبياء : ١٠

ومع ذلك فقد دخل العرب الإسلام بشقّ النفس ، ولكنهم بعدما اطمأنّوا إليه افتدوْه بالنفس والنفيس ، وطوَّفوا به فى أرجاء العالمين .

وكانت عقيدة التوحيد الأساس الذى انبعثوا به وجادلوا الناس فيه ، فالنصارى فى المشارق والمغارب يجعلون عيسى إلها ، ويجعلون جبريل إلّها ، ولايزال التثليث شعارهم إلى يوم الناس هذا .

وقد نفى القرآن هذه المزاعم ، وبيّن أن عيسى وجبريل « عباد مكرمون . لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إلّه من دونه فذلك نجزيه جهنم . . . »[1] .

وهذا التهديد واضح الدلالة ! فأىّ إلّه هذا الذى يهدَّد بجهنم ومع ذلك يستسلم ويستكين ؟ لو كانت فيه ألوهية لثار لكرامته ، وهاج مُحدِثاً فتنة فى الملأ الأعلى ! بيد أن شيئا من ذلك لم يحدث ، وبقى النظام الكونى على العهد به من بدء الخليقة ! .

لماذا ؟ لأن صاحب الكلمة الحاسمة فى الأرض والسموات واحد ، ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ! ماعداه خافض الرأس أمام جلاله ومجده ، لاينبس بكلمة تخالفه « وله من فى السموات والأرض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون . يسبحون الليل والنهار لايفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون »[2] .

والأنبياء جميعا دعاة إلى توحيد الله ، ولا غرو فهم مرسلون من لدنه « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون »[3] .

إذا كان هناك غير الله فلماذا صمت فلم يتكلم ؟ وعجز فلم يبعث أحدا ينبئ عنه ؟ إنه لا إلّه إلا الله ، وما يتبع المعدِّدون إلا أصفارا . . .

ولم تتبع السورة فى ذكر الأنبياء ترتيبا زمانيا ولا تحديدا مكانيا ، فقد بدأت بذكر موسى وهارون ، ثم ثنّت بالكلام عن إبراهيم ، وهما من ذريته ! على عكس ما وقع فى سورة مريم من ذكر إبراهيم أولا ، والسبب أن توراة موسى أشيع وأبقى ، فكان الإيماء إليها تمهيدا للحديث عن القرآن الكريم : « وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون »[4] ؟ .

ويلفتنا فى الحديث عن إبراهيم ذكر شبابه المؤمن القوىّ ، فقد شاع تحطيمه للأصنام ، وتهديده لها من قبل « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم »[5] وقد شاء إبراهيم أن يستبقى الصنم

---

(١) الأنبياء : ٢٦ـ٢٩ (٢) الأنبياء : ١٩ ـ ٢٢ (٣) الأنبياء : ٢٥ (٤) الأنبياء : ٥٠
(٥) الأنبياء : ٦٠

الأكبر بعدما جعل زملاءه جذاذا ، وأن يعلّق الفأس برأسه ليقول للعبّاد المذهولين نافيا التهمة عن نفسه : « بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون »[1] .

وظاهر أنه يوبخ المشركين ويتهكم بعبادتهم . .

وجاء ذكر لوط بعد إبراهيم ، فهوا ابن أخيه ، وشريك له فى مجاهدة الفسقة « ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين »[2] .

وعاد الكلام إلى نوح ، ثم تبعه الكلام عن داود وسليمان ، وهما من أنبياء بنى إسرائيل ، ويذكر القرآن عن هذين الرسولين أنهما اختلفا فى حكم أصدراه فى قضية واحدة : « فَفَهَّمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما . . . »[3] إن الخلاف فى فروع العبادات والمعاملات شىء طبيعى، وهو مأجور على الحالين من خطأ وصواب ، مادام وراءه اجتهاد محترم .

ولكن عوام المسلمين يجعلون هذا الخلاف مثار فرقة وهجاء ، وهذا يغاير منهج القرآن الذى رأيت .

وتذكر السورة أيوب ، وكان ذا صحة ومال وولد ، فنكب فى أولئك جميعا وساءت حالته ، فلجأ إلى الله يستجير به « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسّنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين »[4] .

وكذلك ابتلى إسماعيل وإدريس وذو الكفل ويونس وزكريا ويحيى ، فإلى أين يلجأون وبمن يستجيرون ؟ بالله وحده ! ولم أر أغبى ولا أضلّ ممن تنزل به الضراء فيسأل العباد ويقف ببابهم ، مايصنع فقير لفقير أوضعيف لضعيف ؟ .

إن الابتلاء طبيعة الحياة ، وهل خلق الناس إلا للابتلاء ؟ فإذا صبروا واحتموا بالله مما يؤودهم يوشك أن يرسل إليهم فَرَجَه .

وابتلاء الأنبياء رفع لدرجاتهم وتعليم لأممهم ، ولنتأمل قصة يونس « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين »[5] فلتكن لنا دروس من هذه القصص ، ولنتعلم منها الارتباط بالله وحده .

وأغلب الأنبياء الذين عرفناهم ظهروا شرق البحر المتوسط وجنوبه فى مناطق قامت بها أهم الحضارات القديمة ، ويمكن وصفهم بأنهم أعضاء هيئة تدريس فى معهد عميدُه محمد بن عبد الله ، وطلابه أهل الأرض كلهم

(١) الأنبياء : ٦٣ (٢) الأنبياء : ٧١ ، ٧٢ (٣) الأنبياء : ٧٩ (٤) الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤
(٥) الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨

وخلاصة تعاليمهم مودعة فى القرآن الكريم . .

ويلاحظ أن الحديث عن هؤلاء الأنبياء سبقه حديث عن اليوم الآخر « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين »[(١)] . وأعقبه كذلك حديث مستفيض عن اليوم الآخر بدأ بقوله تعالى : « وتقطعوا أمرهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون»[(٢)] كان حَرِيًّا بأتباع الأنبياء أن يتعاونوا على البر والتقوى ، لكن الذى وقع غير هذا ، فقد ظل اليهود عشرين قرنا يكذبون عيسى بن مريم ، وعندما ظهر محمد كذبه النصارى ، وتعاون معهم اليهود على حرب رسالته وخصومة أمته !! .

ويبدو أن هذا التقطع بين أتباع الرسل سوف يبقى حتى يظهر جنس همجىّ من شرق العالم لم يحمل يوماً مّا رسالة سماوية ، فيجتاح الدنيا ويهزم من يعترضه « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا»[(٣)] . والذى يظهر لى أن هؤلاء من الصين وشرق آسيا عامة . ومن المفسرين من يقول : إنهم المغول والتتار الذين أسقطوا دولة الإسلام فى بغداد ، وداسوا الشعوب من سبعة قرون تقريبا ، وليس هذا بمقبول ، فالسياق يدل على أن يأجوج ومأجوج من الفتن التى تظهر بين يدى الساعة ، وأنهم من أشراطها القريبة جدا .

وقد أعقب الحديث عنهم ذكر أهل الجنة السعداء بما وعدوا ، وأهل النار الأشقياء بمالقوا ، ثم قوله تعالى : « يوم نطوى السماء كطىّ السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده . . . »[(٤)] والسجل : الورقة التى يسطر الكاتب على صفحتها ثم يطويها بعدما انتهى من مراده ، وهكذا ينتهى أمر السماء والأرض ويتحول العالم إلى ذكريات توضع فى « الأرشيف » كما يعبِّر عصرنا . . !

ثم يقول الله بعد ذلك : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون»[(٥)] . قد تكون الأرض أرض الجنة كما جاء فى سورة أخرى «وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء »[(٦)] وقد تكون الآية إشارة إلى أن مواريث السيادة فى الأرض تؤول إلى من يستحقونها بمؤهلاتهم الخلقية والاجتماعية .

ومجىء ذلك فى الزبور لأن داود كان يقود شعبا مظلوما يكافح لتأمين عقيدته وحريته ، فأفهمنا الله ـ كما أفهمه ـ أن للسيادة مرشحات وخصائص لابد من استجماعها .

---

(١) الأنبياء : ٤٧ — (٢) الأنبياء : ٩٣ — (٣) الأنبياء : ٩٦ ، ٩٧

(٤) الأنبياء : ١٠٤ — (٥) الأنبياء : ١٠٥ — (٦) الزمر : ٧٤

وكما بدأت السورة بالدعوة إلى التوحيد ، والاستعداد للآخرة ، والانتفاع بالوحى، ختمت بالمعانى نفسها « قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون »[1]؟ .

فإذا صدقتم معشر العرب نجوتم وسدتم ، وإلا فلا عذر لكم « قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون » ؟

(١) الأنبياء : ١٠٨

سورة الحج

بدأت سورة الحج بنداء عاطفى مثير للذعر ، لأنه يحمل فى أطوائه بعض أهوال القيامة !
«ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى . . . »[1] .

وقد جاء فى السنة أن الزلازل تهيج قبيل قيام الساعة ، ومعها براكين تلفظ ما فى باطن الأرض من معادن ! يلتقطها الناس وهم فيها زاهدون .

كأن هذه الحركة صحوة الموت ، أو انتفاضة الوداع الأخير . . . !

وبعد هذا الوصف نداء عقلىّ يوقظ العقل الخامل ، أو يقتل الريبة المخامرة : « ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبيّن لكم . . . »[2]

الريبة فى البعث أساسها الغفلة الشديدة عن قصة الحياة والأحياء ، وظنُّ الجهال أن البعث عمل مستقبلىٌ لايشهد له ماض أو حاضر . ! فى كل يوم ، بل فى كل طرفة عين بعث ! ! يتولاه الله وحده ، فلماذا يُستبعد عليه البعث الأخير ؟ .

هذه الأجنّة التى تقذف بها الأرحام فى كل لحظة بعث لا أثر فيه لقدرة بشر ! .

من خالق الحيـوان المنوى ؟ من الذى يحوّله فى أطواره المتتابعة حتى يكون جنينا مكتمل الحواس ، ومن الذى يخرجه من بطن أمه بعدئذ . لتتعامل رئتاه مع هواء الدنيا ، ولتتعامل عيناه مع الأشعة والأضواء ؟؟ .

من الذى زوّده بالخصائص الوراثية المذهلة ؟ .

إن القصة لاتعنى حياة جنين واحد زار الدنيا فى ساعة من ليل أو نهار ، إنها ألوف من الأجنة تستبقى الحياة البشرية موصولة التيار فى بحرها الموّار . .

وندع الحديث عن الأحياء البشرية وغير البشرية التى تغمر البر والبحر إلى حديث آخر « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »[3]

---

(١) الحج : ١ ، ٢   (٢) الحج : ٥   (٣) الحج : ٥

كيف ينشق الثرى عن الحبوب والفواكه ؟ لماذا نصدِّق هذا البعث ونستبعد البعث الآخر ؟ من هذا التراب الميّت الذى تدوسه أقدامنا تخرج سنابل الأرز والقمح حاملة أغذيتنا التى نعيش بها ، حاملة عناصر الحياة المختلفة من نشا وسكر ودهن وزلال وأملاح ومعادن وفيتامينات ! .

هذا واقع لايمكن إنكاره ، فمن النَّتن المَمْجوج والحمأ المسنون تخرج حلوى وورود وأزهار حلوة الطعوم والروائح !! .

مَنْ صانع هذا كلِّه ؟ ولماذا نستنكر على صاحب البعث الأول ، أن يعيد هذا البعث بعد حصاد الدنيا وانتهاء أجلها ؟ .

ومن هنا يذكر القرآن النتائج التى لابد منها ، بعد النداءيْن العاطفى والعقلى : « ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ! »[1] .

وكثير من الناس يثق من هذه النتائج تمشيا مع منطق العقل ونداء الفطرة ، ولكن آخرين يرفضون الإيمان ويرون حياتهم وليدة مصادفة عمياء ، ومصيرهم إلى مجهول أو إلى هباء ! .

ومن الخطأ احترام نظرة هؤلاء ، وقد راجت شائعة بأن كثيرا من المفكرين ملاحدة ! وهذا كذب ، وقد أثبت الأستاذ العقاد فى كتابه « عقائد المفكرين » أن جمهرتهم من المؤمنين .

إن الكفر بالله موجود بيد أنه لايستند إلى أساس علمى أبدا ، ويغلب أن يرجع إلى غباء مستحكم ، أو خطأ فى الحساب ، أو شهوة غالبة ، أو غرور أعمى .

إن إبليس كان يعلم أن الله حق عندما رفع راية التمرّد عليه ، وانطلق فى الأرض عدوًّا له !! .

وقد بدأت الآيات تشرح أنواع الكفر من قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولاكتاب منير . ثانى عطفة ليضل عن سبيل الله . . . »[2] إن الكافر يغدر بميثاق الفطرة المركوزة فى كيانه ، وبآيات الوحى المسوقة إليه ليتذكر ويرعوى !! ولست أرى أحقر من هذا الموقف ! .

وهناك صنف آخر يربط إيمانه بمايصيبه من نفع ، فإن كان ناعم البال فهو مؤمن ، وإلا أعلن تمرّده وعصيانه ! « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين »[3] .

والمفروض أن فترة الحياة الموهوبة للإنسان فى هذه الدنيا هى فترة اختبار وتمحيص ، يتقلب فيها بين مايحب وما يكره ، إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر !! أما أن يصف مايصيبه بأنه « قدر أحمق الخطا » ـ كما يقول البعض ـ فهذا كفر محض .

---

(١) الحج : ٦ ، ٧   (٢) الحج : ٨ ، ٩   (٣) الحج : ١١

إن الإسلام انقياد لله ورضا بحكمه فيما يسر أو يسوء

مـن عـرف الله أزال التهـمة وقـال : كـل فعـله بالحكمـة

« إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »[1] .

ويقول الشاعر :

يـودّ المـرء أن يلـقى مُنـاهُ ويأبى الله إلا مايشـــاء !

فمن استسلم لأقدار الله نجا ، وإلا فلينتحر إذا لم يعجبه القضاء « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر : هل يذهبن كيده مايغيظ »[2] .

وعلى أية حال فالمصير إلى الله ، وسينقلب إليه البشر كلهم ، وليس من أوصافه الظلم « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد »[3] .

بعد هذه المقدمة الطويلة فى سورة الحج شرع القرآن الكريم يصف الصراع القائم فى الدنيا بين الإيمان والكفر ، بين الذين يحملون راية الحق والذين يحملون راية الباطل .

وهذا الصراع جزء ضخم من الابتلاء الذى قامت عليه الحياة ، وامتاز به المجرمون والصالحون .

لن ينشأ ودّ بين مؤمن بالله ومنكر له ، ولن يلتقيا فى نهج أو سيرة ! فهل يعنى ذلك أن تندلع الحرب بينهما حتما ؟ لا ، إن المؤمنين مكلفون بدعوة الجاحدين وبيان طريق الحق أمامهم ، ولايجوز أن يتجاوزوا الحكمة والموعظة الحسنة ، فإن الله اختبر كلا الفريقين بالآخر ، ولايسوغ أن نسقط فى هذا الاختبار ! .

علينا أن نشرح الحق ونبسط أدلته ، ونجعل وجهة نظرنا ساطعة كالشمس ، فإن أبوا الدخول فيها اليوم تركناهم لأيام مقبلة ، وكنا فى معاملتهم منصفين أبدا . . !! .

تلك كانت سيرة نبينا حتى نصره الله على عدوّه . إن هذا العدو لايملك حجة لباطله ، ولكنه يستغل القوة المتاحة له فى إيذاء خصمه ، وقديما قيل للمرسلين : اسكتوا أو نخرسكم ! « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ فى ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . . . »[4]

تلك هى طبيعة الخصومة القائمة بين أهل الإيمان ، وأهل الكفر ، والتى عبرت عنها السورة هنا بهذه الآية « هذان خصمان اختصموا فى ربهم »[5] والمروىّ فى السنة انها نزلت فى معركة بدر ،

---

(١) ابراهيم : ٥ (٢) الحج : ١٥ (٣) الحج : ١٧

(٤) إبراهيم : ١٣ ، ١٤ (٥) الحج : ١٩

فى أول قتال بين فرسان الحق ، وفرسان الضلال ، وهو قتال وقع بعد خمسة عشر عاما من الملاينة والمحاسنة وتحمُّل المسلمين للأذى والضرّ .

وقد شرحت ذلك الآيات التى جاءت بعدُ مبينة أن الأنبياء على مر العصور مرّوا بتلك المحنة ، وأن البيوت التى بنوها لعبادة الله ماثبتت إلا بعد جهاد مرير تحمل أعباءه جند الحق « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحب كل خوّان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ! [١] .

إن الأنبياء وأتباعهم لايعرفون حرب العدوان التى يشنّها البطر ، ولايرتضون أن تسفح قطرة دم ظلما ، إنهم يقمعون البغى وحسْبُ .

وإنما يكتب الله النصر لهم لأنه نصر للمبادئ التى يمثلونها ، وليس دعما لأشخاصهم ! .

وما هذه المبادئ التى يحملونها ؟ « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » [٢]

إن أتباع المرسلين لايبحثون عن مال أو جاه وإنما هدفهم الأساسى أن تعرف القافلة البشرية ربها ، وتهتف باسمه ، وتعنو لمجده .

ونلحظ أنه بين الآيات التى تحدثت عن القتال جاءت القضية التى نزلت السورة باسمها : قضية الحج ، فذكرت المناسك والشعائر ويظهر أن إيرادها لإفهام المشركين أنهم منحرفون عن دين إبراهيم الذى يزعمون الولاء له ، فهم مشركون ، وهو يدعو للتوحيد ، فأنّى لهم علاقة به ؟ .

إنهم خونة لميراثه وإن ادّعَوْا حراسته !! ثم هم يصدّون الموحدين عن البيت العتيق ، فيضمّون إلى غمط الحق ظلم أتباعه « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » [٣] .

فمقاتلة أولئك المعتدين خصومة شريفة لانلام عليها ولا نحمل تبعاتها .

والمتأمل فى أفعال الحج يلحظ فيها كلها أنها تظاهرة كبرى اختار القدر زمانها ومكانها لدعم التوحيد وغرسه فى القلوب ، وجمع الناس فى المشارق والمغارب على معانيه .

وقد بدأ بذلك إبراهيم من قرون سحيقة « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألاّ تشرك بى شيئا . . . » [٤] وقد سمعت بعض الناس يقول فى المناسك : إن الله اختبرنا بما نعقل فآمنا ! فشاء أن يختبرنا بما لانعقل !! .

---

(١) الحج : ٣٨-٤٠ (٢) الحج : ٤١ (٣) الحج : ٢٥ (٤) الحج : ٢٦

وهذا خطأ كبير ، فليس فى أفعال الحج مايناقض العقل !! هل فى مطالبة العباد بتقدير البيت الأول على ظهر الأرض ماينافى العقل ؟ .

قد تقول : فما معنى الطواف به ؟ ونجيب بأن الطواف صلاة تجب له الطهارة ، ويمتلئ بالتسبيح والتحميد والابتهال ! إن هناك فارقا بين مايتواضع الناس على فعله إبرازًا لمعنى معين ، أو التزاما بمبدأ معين ، وبين ماينافى العقل ويحكم برفضه ! .

فنحن نكتب من اليمين إلى اليسار ، والأوربيون يكتبون من اليسار إلى اليمين ، والصينيون يكتبون من فوق إلى تحت ، فماصلة العقل بهذا الخلاف ؟ .

ونحن وكثير من الناس نلتزم اليمين فى السير ، والإنجليز يلتزمون اليسار فى السير ، ولاصلة للعقل بهذا الخلاف .

إن مانتواضع عليه ونجعله مقرونا بدلالة خاصة لايحكم العقل فيه بوفاق أو خلاف ، وأفعال الحج من هذا القبيل ، فنحن نزور أول بيت بنى حصنا للتوحيد .

فلماذا تنكر قيمة الأوّلية هنا ؟ ولماذا لاترتبط المساجد فى القارات الخمس به ؟ « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام : فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير »[(١)] .

ومن الممكن بالوسائل الحديثة إطعام « الملايين » المحتاجين إلى اللحوم ، من أهل مكة أو من سائر المدن والقرى « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ . . . »[(٢)]

إن المناسك التى شرحتها هذه السورة توكيد إنسانىّ قوىّ لمعنى التوحيد ، وحشد للجماهير تحت رايته « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق »[(٣)] .

وفى بناء الأمم صاحبة الرسالة لابد من اختلاط تاريخها بعبادتها ، وذكرياتها بسيرتها ، وعواطفها بفكرها « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب »[(٤)] .

البلاء المقرون بالحياة البشرية منذ نشأتها بلاء معقّد صعب : فإنه ماقام داع للحق والخير إلا انتصب أمامه دعاة للباطل والشر يريدون إبطال سعيه ، وتعويق خطوه ، وتظل الحرب بينهما أمدا يستفرغ الجهد .

---

(١) الحج : ٢٧ ، ٢٨ (٢) الحج : ٣٦ (٣) الحج : ٣٠ ، ٣١
(٤) الحج : ٣٢

وقد يأذن القدر فى هذه الحرب بهزيمة الحق ـ لحكمة عليا ـ فترى مساجد تحوّلت إلى متاحف أو مخازن أو اصطبلات !! .

وفى عصرنا هذا هدم الهنادك مسجد « بابرى » بالهند ! قالوا : إنه موضع ولادة إلّه لهم اسمه «مايا » ويبدو أنه إلّه حديث الولادة !! .

وقد قتل مسلمون كثيرون وهم يدافعون عن المسجد ليبقى نداء التوحيد يعلو قبابه ومحاريبه ، لقد ذهبوا شهداء ، ولاتزال المعركة محتدمة ! .

والمستقبل غيب ولكن على المسلمين أن يثابروا ويصابروا ، فإن الكلمة الأخيرة لهم وليسمعوا مواساة الله لنبيه « وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم إبراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وَكُذِّب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير »[(١)]؟ .

ثم تمتد المواساة لتكشف أن للزمن حسابا آخر عند الله ، فقد يشهد جيلٌ الهزيمة ، ثم بعد أعصار يشهد جيل آخر النصر « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »[(٢)] .

إن العبء الملقى على الرسول أن يبلغ البلاغ الواضح الذى يقطع المعذرة ، حتى لاتبقى لأحد الكافرين حجة « قل ياأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم »[(٣)] .

ثم يبين الله لنبيه ولنا أن المرسلين يبذلون جهدهم لنصرة الحق ، حتى ليكاد عباد الأصنام أن تنشرح به صدورهم ، ولكن سرعان ما تعترضهم الشياطين بوساوسها ، فينكسون على رءوسهم ويقولون تعليقا على جهد الرسول معهم : « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها . . . »[(٤)]

لقد كادوا يسلمون !! . لولا أن شياطين الجن والإنس أدركوهم وثنوْا زمامهم !! « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا »[(٥)] وهذا الزخرف من القول الذى يضل به الغاوون سمّى هنا إلقاء الشيطان « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبىّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم »[(٦)] .

وإلقاء الشيطان قد يكون الشغب على الحقيقة ومحاولة طمسها من المدافعين عن الباطل ، وقد

---

(١) الحج : ٤٢ ـ ٤٤ (٢) الحج : ٤٧ (٣) الحج : ٤٩ ـ ٥١
(٤) الفرقان : ٤٢ (٥) الأنعام : ١١٢ (٦) الحج : ٥٢

رأينا من إعلام المرجفين وكلمات المبطلين مايهدّ الجبال ، ولكن الله يبطل كيدهم ويكشف زورهم ، ويجعل الحق يخرج من المعركة سليما منزها . .

وقد يكون إلقاء الشيطان فى رسالات الله ما ينضم إليها من بدع وأهواء وانحرافات جاءت من الدهماء أو من السلاطين ، فشوّهت حقيقة الدين وجعلت البعض ينصرف عنه ويسىء الظن به !! .

وأياً ما كان الأمر فإن هذا الإلقاء فقّاعات توشك أن تتلاشى ، ويبقى الحق وضىء الوجه ، ويبقى أصحابه بيدهم الأمر والنهى !! .

ولانذكر هنا خرافة الغرانيق ، فهى أكذوبة ينخدع بها الأغبياء ، كما سنبين ـ إن شاء الله ـ عند بلوغ سورة النجم . . .

مما يعين على حسن الدعوة وصدق الجهاد أن نعرف قدر من ندعو إليه ونجاهد فى سبيله ، فإن الساعى لإعلاء كلمةالله شخص آخر غير الساعى لمآرب الدنيا ، ونزوات الحياة ! .

لذلك حثّ الله نبيه على المضىّ فى طريق البلاغ « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءفتصبح الأرض مخضرة؟إن الله لطيف خبير . له مافى السموات ومافى الأرض وإن الله لهو الغنىّ الحميد»(1)

ومضت الآيات تتحدث عن عظمة الله وبدائع قدرته ، وعن استحقاقه وحده لأن يُعبد فى الكون الكبير ! مَنْ يعبد من دونه ؟ بشر عاجز ؟ أو حجر أصمّ ؟ « ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا ، وماليس لهم به علم ، وما للظالمين من نصير »(2) .

ثم يقول الله لنبيه : « لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم »(3) .

عندما نزل الأمر بالحج قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس : « خذوا عنى مناسككم » فشرح لهم شعائرهم وأعمالهم كاشفا أن الحج ـ كما قلنا ـ تظاهرة كبرى يُهتف فيها لله وحده ، ويتحول التوحيد من شعور يخامر الفؤاد إلى جؤار يملأ الأودية ، ويدوّى فى الآفاق .

ويذكر اسم الله على الذبائح التى يتقرب بها إليه ، « لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم »(4) .

ورفض الرسول ـ صلوات الله عليه ـ أن يكون لقريش طريق تفيض منها وحدها ، كما رفض أن يكون دخول البيوت بعد العودة من ظهورها لامن أبوابها . .

إن الحج إعلان رائع عن دولة الإيمان ، وإسقاط مُخْزٍ لدولة الشرك ، ولذلك يقول الله هنا :

---

(1) الحج : ٦٣ ، ٦٤ (2) الحج : ٧١ (3) الحج : ٦٧ (4) الحج : ٣٧

«لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه ، فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع إلى ربّك إنك لعلى هدى مستقيم . وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون»[١] .

ويبلغ أمر التوحيد أوجه الأعلى ، وأمر الشرك دركه الأسفل فى قوله تعالى : « ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب »[٢] .

وتختم سورة الحج ببيان الرسالة التى تضطلع بها الأمة الإسلامية ، أو بالكشف عن الوظيفة التى تقوم بها ، ورايتها التى ترفعها .

إن الرسول تعلّم من الله ، وهى تعلمت منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعلى هذه الأمة أن تبلغ العالمين ما استفادت من رسولها الذى بلغها .

فهو شاهد عليها ، وهى شهيدة على الناس ، إن الدول فى الحضارة الحديثة تعمل على رفع مستوى المعيشة ، أو تقاتل عصبية لجنسها ، أو تشغل نفسها بما يعلى شأنها على هذا التراب !! .

أما الأمة الإسلامية فلها شأن آخر ، إنها تعبد الله وتدعو إلى عبادته ، وإذا كانت الطواغيت قد استذلت الناس قرونا فإن أمتنا مكلفة بمجاهدة الطواغيت حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله « اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده . . . »[٣] ثم يقول : « وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس »[٤] هل وعى المسلمون هذه الرسالة ؟! .

---

(١) الحج : ٧٧، ٧٨ (٢) الحج : ٧٣ (٣) الحج : ٧٧ ، ٧٨

(٤) الحج : ٧٨ .

سورة المؤمنون

بين الأعمال وأجزيتها رباط وثيق ، فمستقبل الخير نضير ولو كان حاضره مُعْنتا ، ومستقبل الشر سيئ وإن كان حاضره خادعا .

والناس عادة معنيون بيومهم الحاضر ومستغرقون فيه . وذلك حجاب عن الحق ، وأحبولة يقع فيها الغافلون .

وقد نزلت سورة المؤمنين لتعلق الأبصار بالآخرة ، وتطمئن المؤمنين إلى مستقبلهم الطيب. أما الكافرون فالويل لهم . .

وافتتحت السورة بهذه البشرى : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . . »[1] إلخ . عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزل عليه الوحى يُسمَع عند وجهه دوىٌّ كدوىّ النحل ، فأنزل الله عليه يوما ، فمكث ساعة ثم سُرِّىَ عنه فقرأ : «قد أفلح المؤمنون» إلى عشر آيات من أولها ، وقال : « من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ، ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم زدْنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تُهنَّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولاتؤثر علينا ، اللهم أرضنا وارض عنا » .

والآيات المذكورة مزيج من العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات ، وقد وعدت المستمسك بها بالفلاح . .

وفى وسط السورة تكرار لهذا المعنى فى ثوب آخر : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربّهم لايشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون »[2] .

وظاهرٌ أن الموصوفين بماذكر هم المذكورون أول السورة ، الموعودون بالفلاح ، وكلا الموضعين يصوِّر جانبا من سيرتهم ، ولونا من شمائلهم .

أما الأشرار فإن سيرتهم وآخرتهم شُرِحتا فى آخر السورة شرحا مستفيضا ، كما ذكرت مصائرهم فى قصص الأمم البائدة ، وفى عرض الحديث عن أحوال المشركين أثناء مناقشتهم وتوبيخهم . .

---

(١) المؤمنون : ١ ـ ٤ (٢) المؤمنون : ٥٧ ـ ٦١

والجزاء الموعود يجيء بعد فترة يقضيها البشر على ظهر الأرض ، يتم فيها تمحيصهم ، وتحصى عليهم أعمالهم وأحوالهم . .

وقد وُصِفَت هذه الفترة وصفا يبعث على الإيمان بالله والشعور بعظمته : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين »[1] كيف تخلّقت هذه الأجسام من التراب ؟ كيف يتحول الغبار المركوم إلى بشر سوىّ ؟ كيف توضع خصائص النخلة فى النواة ، وخصائص الإنسان فى النطفة ؟ كيف تتجه قوانين الوراثة إلى غايتها على مرّ الأيام ، فإذا الطفل العاجز بشر عملاق ؟ .

إن كل شيء يصرخ بعظمة الخالق الكبير ، ولكن الكافرين يحيون فى غفلة هائلة ، ومصيرهم كالح ! « ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »[2] .

وعادت السورة بالناس إلى الماضى البعيد ، تحكى جحود الأوائل لفضل الله ، وتمردهم على هداياته ، وتكذيبهم لرسله ، فذكرت نوحا وقومه ، وهودا وقومه ، « ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين . ماتسبق من أمة أجلها ومايستأخرون . ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لايؤمنون »[3] .

والأقوام التى رفضت الإيمان تعيش كثرتها فى المنطقة التى يقال لها الآن « الشرق الأوسط » كان نوح شمالىّ العراق ، وهبط إبراهيم من العراق إلى الحجاز ، ومرّ بمصر والشام ، وخرج موسى من وادى النيل يريد الفرار بقومه ، ومات فى التيه ، وولد عيسى بفلسطين وزار مصر ، وكان صالح وشعيب شمال الجزيرة العربية ، وكان هود بالأحقاف فى اليمن . . إلخ .

ويبدو لنا أن الناس فى هذه البلاد كانوا أقرب من غيرهم وعيا لرسالات السماء وحقائق الوحى !! فلما جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم مزّق القدر شملهم !

هل كان المرسلون يكلّفون الناس مالايطيقون ؟ كلا ، فليس يشقّ على الناس أن يَدَعوا الخبيث للطيب ويفعلوا الخير ! « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »[4] .

ولذلك قال بعدئذ : « ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون »[5]

ثم جاءت الرسالة العالمية بعد هذه الرسالات المحلية ، وساق محمد خلاصات الوحى الإلهى كلّه لعرب الجزيرة فى قرآن كريم حوى الرسالة ومعجزتها معها .

---

(١) المؤمنون : ١٢ ، ١٣ (٢) المؤمنون : ١٥ ، ١٦ (٣) المؤمنون : ٤٢ ـ ٤٤

(٤) المؤمنون : ٥١ ، ٥٢ (٥) المؤمنون : ٦٢

ولكن العرب أول أمرهم رفضوا الإسلام وكذبوا نبيه ! وهم أعرف الناس بشرف محمد وأمانته ، وقد أشار أبو طالب لهذا حين قال :

لقد علموا أن ابننا لا مكذَّب   لدينا ، ولا يُعْزَى لقول الأباطل !!

ووصف القرآن موقفهم هذا بقوله : « أفلم يَدَّبَروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جِنّة بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون»[1] .

وقد كلفتهم كراهية الحق ثمنا غاليا « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون »[2] فانهزموا فى معركة بدر هزيمة مخزية ، ورُمِىَ صناديد الكفر وأشياعهم فى بئر مظلمة .

وقد كانوا من قبل يسمرون فى ناديهم بشتم الإسلام والسخرية من تعاليمه ، والنيل من المسلمين المستضعفين واستباحة حقوقهم .

وفى مصارع كبراء قريش بعد عزهم القديم ، وترفهم الأثيم يقول شداد بن الأسود :

وماذا بالقليب : قليب بدر   من الشيزى تَزَيَّن بالسنام

وماذا بالقليب : قليب بدر   من القَيْنات والشَّرْب الكرام

وهنا الشاعر كان على دين قومه فى الكفر بالبعث والجزاء ، ولذلك يقول مستهزئا :

يحدثنا الرسول بأن سنحيا !!   وكيف حياة أصداء وهام ؟

ويقول الله سبحانه وتعالى ردًّا على هذا كله : « بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون »[3] .

إيلام المرء قد يكون تطهيرا له ورفع درجة ، ويقع ذلك للصالحين والمجاهدين وأمثالهم كما جاء فى الحديث : « لايصيب المسلم من هم ولا غم ولاوصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفرَّ الله بها من خطاياه » .

وقد يكون الإيلام تأديبا وتهذيبا وردًّا إلى حالة الاعتدال التى يتجاوزها المخطئ ، فإن للقوة صولة وللثروة طغيانا .

وقد يتطاول المرء فوق قدره ، لأن الرزق بسط له ، أو لأن جاهه اتسع ! .

وقد كانت قريش شديدة الكبر على الحق ، لأن رغد العيش أبطرها حتى دعا الرسول عليها : « اللهم أعنىّ عليهم بسبع كسبع يوسف » أى سبع سنوات عجاف . . .

(١) المؤمنون : ٦٨ ـ ٧٠   (٢) المؤمنون : ٦٤   (٣) المؤمنون : ٧٠ ، ٧١

ولاتزال أمواج الألم تغمر المخطئين حتى يرعووا ، وكلما تأخر صلاحهم ترادف البلاء عليهم ، لأنهم كما قال الله : « ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضرٍّ للجّوا فى طغيانهم يعمهون »[1] .

ولقد مرّتْ بقريش سنوات عضوض قيل : ألحّ عليهم الجوع حتى اسودّت الآفاق فى عيونهم . . ومع ذلك ظلوا منتصبين نحو عشرين سنة يقاتلون الرسول وصحبه ! .

ومازالوا كذلك حتى خارت قواهم ، وسقطت دولة الكفر فى أرضهم ، وقامت بدلها دولة الإيمان « حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون »[2] .

وسورة المؤمنين مكية ، وهذا التهديد لحمل القوم على الرشد ، ولكن القرآن الكريم يعود إلى سننه فى التعليم والإرشاد ومناشدة العقل الإنسانى على الوعى .

ولذلك بدأ يذكّر الناس بنعمة الله عليهم ، وكيف أوجدهم وسخر لهم الليل والنهار والشمس والقمر ، وكيف أنشأ لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وقد وجّه لهم ثلاثة أسئلة تكشف التناقض فى شركهم ، والخلط فى تفكيرهم ، وتبعثهم على إخلاص التوحيد :

« قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل أفلا تذكّرون ؟ .

قل من ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم . سيقولون لله ! قل أفلا تتقون ؟ .

قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولايجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل فأنى تسحرون »[3] .

وهذه الأسئلة موجهة إلى المشركين الذين يعبدون الأصنام وهم يعلمون أنها لم تخلق أرضا ولاسماء ، ولم ترسل رزقا ولم تحدد أجلا . ولكن هذه الأسئلة نفسها توجَّه إلى فريق من أهل الكتاب ، يشوبون التوحيد بالتعديد ، ويختلقون مع الإلّه آلهة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان .

والواقع أن القرآن بنى الإيمان الصحيح على الوحدانية النقية التى تجعل ماعدا الله مِلْكا خالصا له ، وعبدا عانيا فى حضرته « ما اتخذ الله من ولد ، وماكان معه من إلّه إذاً لذهب كل إلّه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون»[4] .

إن عقيدة التوحيد وليدة فكر ثاقب ، وبرهان دامغ ، وما الشرك أو أبوّة الله وبنُوَّته ، إلا ظنون خامرت العقل وهو غافل ، وسكنت فيه وهو مخدَّر .

ولما كان المرء قد يقع صريع شهوة غـالبة ، أو ميراث جارف ، فيبقى على ضلاله وشروده ، فإن الله سبحانه أشعر الإنسان بأنه ليس بخالد فى هذه الدنيا ، إنه معَّمر فيها إلى حين ! فليخش الموت ومايتبعه ، فإنه سيندم ويتمنى لو كان عقل « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : ربّ

---

(١) المؤمنون : ٧٥ (٢) المؤمنون : ٧٧ (٣) المؤمنون : ٨٤ـ٨٩ (٤) المؤمنون : ٩١ ، ٩٢

ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ! كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون»[1] .

وطلب الرجوع إلى الدنيا لاستئناف حياة أشرف تكرر فى القرآن الكريم عشر مرات أو يزيد ، وهو دلالة حاسمة على أن المجرم يعترف بخطئه السابق ، ويرجو الله أن يتيح له فرصة أخرى للإصلاح . .

وفى سورة المؤمنين تكرر هذا الطلب مرتين : مرة عند مجىء الموت ، ومرة عند الحساب « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون . قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون »[2] .

ولعل هذا الطلب المتكرر يقنع جماهير من الناس تدين بعقيدة الجبر ، وتزعم أن الجزاء مكتوب! لاسبب للإنسان فيه !! .

وهؤلاء كثيرون فى أمتنا يعيشون بغير إرادة ، ويظلمون الإسلام بتهاوتهم الغريب .

وقد جاء ختام السورة تكذيبا لهؤلاء الكسالى ، وتقبيحا لأفعالهم : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ؟ . فتعالى الله الملك الحق ! »[3] إن الله أعلى وأجلّ من أن يظلم أحدًا من خلقه ! لقد منح آدم وبنيه الحياة فى هذه الدنيا ، وزودهم بعقل كاشف ووحى هادٍ .

وبشَّر وأنذر ، وأصحّ وأمرض ، ويسَّر وعسّر ، كى يتعرف المرء على ربّه فى الحالين ، ويستعد للقائه بعمل صالح ، فإذا أبى إلا الشرود فالعقاب المرصد عدل ، ولايسمع فيه عذر . .

وقد ذكرت السورة أن المرء الكافر عند الحساب ينسى الزمن ، ويذهب من عقله الماضى كله ، ولاتتماسك الحياة الأولى فى ذاكرته إلا لحظات قصيرة مبهمة « قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادّين ! قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون »[4] .

ومرة أخرى يعود القرآن إلى بناء الإيمان على البرهان ، ويؤكد أن الدين ليس عقلا خرافيا يتبع الترهات ! إنه عقل يحترم الدليل ويحتجّ به .

إن العقل مناط التكليف وسلّم الارتقاء ، وأقرب الخلق إلى الدواب هم الكافرون بالله ، البعيدون عن هداه : « ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون . وقل ربّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين »[5] .

---

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠
(٢) المؤمنون : ١٠٥ ـ ١٠٧
(٣) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦
(٤) المؤمنون : ١١٢ ـ ١١٤
(٥) المؤمنون : ١١٧ ، ١١٨

سورة النور

النور من أسماء الله الحسنى ، وسميت سورة النور بهذا الاسم لأنها تضمنت الآية الكريمة : «الله نور السموات والأرض . . . »[1] والنور - ماديه ومعنويه - صادر عن الله تعالى ، بل كل شىء يستند فى وجوده إلى البارئ الأعلى ؛ فما لا وجود له من ذاته فحقيقته صفر .

إن الكون كالظلّ لا وجود له إلا من الجسم الذى يلقيه ، فإذا ذهب الجسم تقلص الظل أو زال . .

والعالم أجمع يوجد ويبقى بإيجاد الله له وتدبيره لأمره ، ونور النهار عند مطلع الشمس ، أو نور الليل عند بزوغ القمر مصدره من الله .

فإذا ذهب النوران فكل ذرة تتحرك دليل على خالقها ، لأنها به تقوم ، وعليه تدلّ .

وفى دعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم آذاه المشركون فى الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحلّ بى غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

ومن دعائه - عليه الصلاة والسلام - وهو يقوم الليل : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن » .

وعن ابن مسعود : « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه . . . » .

وسنشرح إن شاء الله قوله تبارك اسمه « مثل نوره . . . » بعد قليل ، أما الآن فننظر فى أول السورة : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون »[2] فى هذا النظم تنويه بالسّورة وما احتوت من توجيهات ، لأنه مابدئت سورة فى القرآن بهذا الابتداء ، وقد تكرر لفت النظر إلى ما أتت به السورة من أحكام مرتين :

الأولى فى قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين »[3] .

والأخرى قوله : « لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »[4] .

---

(١) النور : ٣٥ (٢) النور : ١ (٣) النور : ٣٤ (٤) النور : ٤٦

ذلك أن السورة تحدثت عن العلاقة الخاصة بين الرجال والنساء ، وذكرت عقوبات بعض الجرائم الجنسية ، وشرحت آداب نظر كل جنس إلى الآخر ، وحددت الزينات المباحة والمحظورة ، كما أوجبت الاستئذان قبل دخول البيوت ، وداخل كل بيت ! وبينت البيوت التى يجوز الأكل فيها ومع من ؟ .

وهذه تنظيمات لبناء المجتمع الإسلامى على العفة والطهر ، وإقامة سياج متين حول المحارم التى يخاف وقوعها . .

وقد كان لهذه التعليمات أثر فى صون الأمة من الآثام وتحصينها من الرذائل ، ومن المشاهد أن الحضارة المعاصرة تجرأت على المناكر ، ومهّدت لها الطرق ، ولم تزل تواقعها حتى استباحتها ، والزنا الآن لا يسمّى زنا ، بل يسّمى فى أغلب الأحيان حبًّا أو صداقة .

وقد دحرجت الأديان عن مكانتها فى التربية ، وفسح الطريق أمام مذاهب لا إيمان لها ولا شرف ، والجهود الاستعمارية مبذولة كى ينتهى الإسلام إلى هذا المصير !! .

وقد بدأت سورة النور بتقرير عقوبة الزنا ، وتحريم الزواج من البغايا ، كما غلّظت جريمة قذف المحصنات ، وشرحت شريعة الملاعنة ، مبينة أن ذلك كله من فضل الله وحكمته وتوبته على عباده . . .

وناسب فى هذا المقام ذكر حديث الإفك ، وهو حديث كشف عما فى صدور أعداء الإسلام من ضغن ، ولاعجب فقد نبه القرآن إلى ذلك من قبل « ولتسمعُنّ من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » (١) .

والحق أنى أحتقر الرجل الذى يتوارى عن الأنظار ثم يطلق مقالة السوء عن سيدة شريفة ، ويترك للمستغفلين والأغرار أن يشيعوها .

ذاك ما فعله كبير المنافقين عبد الله بن أبىّ عندما افترى الكذب على عائشة أم المؤمنين ، وطعنها فى أغلى ما تملك وتركها تقول : ظننت أن الحزن فالق كبدى !! .

أما الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد أخذته الدهشة وتحيّر فى هذه المصيبة الداهمة ، لولا أن الله أنزل براءة زوجته فى وحى يتلى إلى آخر الدهر !! .

وقد تضمنت القصة دروسا ينبغى ألا تنسى « ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا . . . » (٢) ! « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة . . . » (٣) ، « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة . . . » (٤) .

---

(١) آل عمران : ١٨٦ (٢) النور : ١٦ (٣) النور : ١٩ (٤) النور : ٢٣

وهكذا أطفأ الله الفتنة بعد ماتركت فى النفوس جراحا . . ! .

ثم عاد القرآن الكريم يذكر الآداب الخاصة بدخول البيوت ، إن لسكانها حرمة مرعية ، لابد من استئناس وتسليم وإذن ، واتسعت دائرة هذا الاستئذان لتشمل الذين يطرقون البيوت من الخارج ، والذين يتنقلون بين الحجرات فى الداخل ، ولا أعرف أن هذه الآداب شرعت فى حضارة سابقة ، أما الحضارة الحديثة فلا تبالى أن تنظر من ثقب الباب لتعرف ما هنالك ! .

ومُضِيًّا مع إشاعة العفاف وتأديب الغرائز أكد الإسلام ضرورة غض البصر وحفظ الفروج .

والواقع أن هذا تشريع تقرر فى الأديان السابقة ولكن الإسلام فصّله وأصّله ، وتحدث عن الزينات الظاهرة المعْفوّ عنها كا لكحل فى العين والحمرة فى الخد ، والخاتم فى اليد ، وعن الزينات الباطنة التى لابد من إخفائها . .

والغرب الذى يدعى المسيحية يصدِّر للعالمين تقاليد العرى والتبرج وانتهاك الحرمات ، وما أظن تاريخ الدنيا شهد مثل هذا الدنس الذى ينشره هؤلاء الناس ، لقد سميتها فى بعض كتبى حضارة البغى والبغاء !! .

ووسائل الإعلام المختلفة تتسابق إلى بث الفتنة داخل البيوت ، وتعرض صورا للرقص الغربى المزدوج والرقص الشرقى المفرد ، يفرح بها الشيطان ، وتزلزل الطهر المنشود .

إن الإسلام اعتبر الزواج عبادة ، وألزم الطبيعة البشرية أن تكتفى بالحلال ، وأن تبتعد عن الحرام . .

ولعل من لطائف القرآن الكريم أن تجى به آية طويلة عن الأكل فى البيوت ، وعن الأهلين والأصدقاء الذى يصح الأكل معهم جميعا أو أشتاتا ، إن إحصاء هذه الآداب الخاصة استغرق ثلثى السورة ، ولكن سورة النور سميت ـ كما قلنا ـ بالآية التى توسطتها تتحدث عن البهاء الإلهى ، والمجد الذى لايبلى ، ولذلك نعود إلى هذه الآية لنشرح المثل المقترن بها .

فى آية النور ضرب الله المثل لنوره فقال : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّىّ . . . »[1] المشكاة : تجويف مصنوع فى الجدار يوضع المصباح فيه عادة! ويسمى فى الريف الطاق ! .

والزجاجة حول المصباح لتصفية نوره ومنع دخانه ! والمثل المضروب هنا لمصباح يستمدّ اشتعاله من زيت خاص ، هو أعلى أنواع زيت الزيتون يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ، والزجاجة من الشفافية والتألق كأنها كوكب درّى .

---

(١)النور : ٣٥

وهنا نسأل : مثل نوره فى أرجاء الكون ؟ أو مثل نوره فى قلب المؤمن ؟ بالأول قال الغزالى ، وعبارته : « النور هو الظاهر الذى به كل ظهور ، أى : الذى تنكشف به الأشياء وتنكشف له وتنكشف منه . وهو النور الحقيقى وليس فوقه نور . وجعْل اسمه تعالى « النور » جاء دالاً على التنزُّه عن العدم ، وعلى إخراج الأشياء كلها من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود . . . » .

والواقع أن دلائل الوجود الأعلى من الكثرة والوفرة بحيث لايزيغ عنها إلا أعمى كأن كل ذرة عليها مقادير من الضوء تجعل انكشافها نهارا !! .

أما المعنى الثانى فهو مثل نوره فى قلب المؤمن ، وأساسه أن القلب العارف يرزَق بصيرة تميز الصواب من الخطأ ، والبرّ من الإثم ، ويمشى بين الناس ثابت الخطو مُسددَ الهدف .

ولعله يستمدّ من القرآن وضوح غايته ، والقرآن نور : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا . . »[(١)] ، « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا »[(٢)] .

وعند التأمل نجد المعنيين متلازمين ، فالذى يلمح فى الآفاق نور ربِّه تستقر هداياته فى قلبه ! ويرتبط بالمساجد يتردد عليها من الفجر إلى العشاء ، فقلبه معلّق ببيوت الله يسبّح فيها بالغدو والآصال . .

أما الكافرون فأشباه دواب لايعرفون عن ربهم شيئا ، وربما كانوا أذكياء فى فهم الدنيا ، ولكنهم محجوبون عن رب الدنيا والآخرة ، « ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور »[(٣)] .

وقد تحدثت الآيات عقيب ذلك عن قدرة الله وعظمته ، واستحثّتْ أولى الألباب على النظر فى الكون ، ففى هذا النظر مايُنمِّى الإيمان ويضاعف نوره .

تدبر قوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض ، والطير صافّات كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون . ولله ملك السموات والأرض ، وإلى الله المصير»[(٤)] ألا يُغْرِيك هذا السياق أن تكون بعض الكون المسبّح بحمد ربه ، المعترف بآلائه ومجده ؟ .

وقد تتساءل : ماعلاقة آداب الأسرة وسلامة المجتمع التى سبقت وأعقبت آية النور بهذا الحديث عن إبداع الله وجلاله ؟ .

والجواب أن كل تشريع يرتبط بالعقيدة ، ويحيا بحياتها ، وهيهات أن يبتعد عنها ، خذ مثلا قوله تعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم »[(٥)] ألا ترى أربعة من الأسماء الحسنى انتظمت فى سياق واحد مع تقرير حكم من أحكام الأسرة ؟ .

(١)التغابن : ٨ — (٢)النساء : ١٧٤ — (٣) النور : ٤٠
(٤) النور : ٤١ ، ٤٢ — (٥) البقرة : ٢٢٦ ، ٢٢٧

هكذا القرآن الكريم يربط الإيمان بالعمل ويقرن الحديث عن شئون الناس بالإيمان الواجب برب الناس . . .

إن رباط الشريعة بالعقيدة وثيق ، وارتباط العمل بالإيمان قائم ، وفى عصرنا يوجد مارقون يريدون أن يجعلوا للشرائع مصدرا غير الإسلام ، وللحكم أسسا غير الوحى ! .

وهم ينظرون إلى سورة النور خاصة بضيق شديد ، لأنها حرمت الزنا والتبرج والانحلال ، ولذلك شرحت السورة موقف هؤلاء ، وبراءة الدين منهم : « ويقولون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون »[١] .

وقد تتعبت مسالك هؤلاء الرافضين لحكم الله ورسوله فوجدت جمهرتهم لاتحترم لله فريضة ، ولاتعرف طريقها إلى مسجد ! وهم يتظاهرون ، ويشد بعضهم أزر بعض ، حتى لايقوم للإسلام حكم ، وغرضهم القريب والبعيد ألا يقوم للإسلام كيان عبادى أو خلقى ، وأن تعمّ العالمين جاهلية حديثة . . .

ولذلك يقول الله بعدئذ . « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقهِ فأولئك هم الفائزون »[٢] .

والحرب من قديم ناشبة بين فريقين : فريق ضائق بالدين كله ، يحتال لإسقاط رايته وإحباط غايته ، وفريق يربط الناس بربّهم ، ويشد أرجاء المجتمع بِشُعَبِ الإسلام كلها . .

وحالة المسلمين فى هذا العصر رديئة ، والهزائم المادية والمعنوية . تحيط بهم ، ولكن الله فتح أمامهم أبواب الآمال عندما قال لهم هنا : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكِّنَنَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم . . . »[٣] .

على أن هذا التمكين يحتاج إلى مقدمات طويلة ، وجهود موصولة ، فإن للقيادة والسيادة مؤهلات لابد من تحصيلها ويستحيل أن يتحقق لعاطل أمل .

ولننظر ما فعل الرسول وصحبه عندما أرادوا إقامة دولة للإيمان ، لقد مكثوا قرابة ربع قرن يصارعون الوثنية العربية حتى هزموها ، ثم جمعوا بالتوحيد فلول العرب ، ومالوا على الرومان والفرس ميلة واحدة ، فما هى إلا جولات يسيرة حتى أصبح المسلمون الدولة الأولى فى العالم !! .

---

(١) النور : ٤٧ ، ٤٨ (٢) النور : ٥١ ، ٥٢ (٣) النور : ٥٥

خلال ثلاثين سنة من نزول « اقرأ . . . » تحوّل رجل واحد إلى أمة رائعة تأخذ لربها ولنفسها ماتريد !! .

كان يستحيل ـ فى الخيال ـ أن تتحول أسرة فقيرة فى مكة إلى دولة تبسط سلطانها على العالمين!!

ماهى الوسائل ؟ « يعبدوننى لايشركون بى شيئا »[1] ، « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون »[2] ! .

أهذه وسائل تنهض بها أمة ؟ ويسقط بها جبروتٌ حكم العالم كله عشرة قرون ؟ « لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض . . . »[3] .

وبديهىّ أن هذه الوسائل لايفهمها العجزة والبُلهُ ، إنما يفهمها ويحشدها رجال فقهوا سياسة الدنيا والآخرة ، وخرجوا من سلطان الأوهام والدنايا ، وارتفعوا إلى سيرة محمد وصحابته .

---

(١)النور : ٥٥ (٢) النور : ٥٦ (٣) النور : ٥٧

سُورَةُ الفُرْقَانِ

من حق الله أن نعرفه ولو لم يبعث لنا رسلا ! فآثاره تدل عليه ، وفطرتنا تتجه إليه ، ومع ذلك فقد شاء ـ رحمة منه وفضلا ـ أن يبعث إلينا من أنفسنا مَنْ نأنس بهم ونتعلم منهم . .

ونحن لانعرف أعداد المرسلين الذين جاءونا ولا أسماءهم ، ولكنا نعلم أن جماعتهم ختمت برسول جَمَعَ كتابُه زبدة تعاليمهم ، وقدَّر الله له أن يصحب الحياة فى مسيرتها الباقية حتى يرث الأرض ومن عليها ، ذلكم هو محمد بن عبد الله « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا »[1] .

إن محمدًا إنسان مثلنا ، ولكن أمجاد البشرية التقت فى كيانه ، ولواء الإمامة العامة انعقد له وحده ! ورُشْد العالم كله ارتبط برسالته الخالدة ، فما يصدّ عنها إلا محروم .

وحين أرسله الله سبحانه وصف نفسه بما هو له أهل « الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا . ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا »[2] وهى صفات مَارَى فيها الجاهلون بالله والجاحدون له ، ولكن صاحبَ الرسالة الخاتمة صنع أمة تؤمن بها ، وتقاتل دونها .

وفى سورة الفرقان التى نزلت عليه إحصاء لشبهات وأقوال أعدائه ، نسردها كما وردت مع دحض مايحتاج منها إلى دحض :

(١) « وقال الذين كفروا : إنْ هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلمًا وزورا »[3] وتكذيب الرسل خُلُق شاع فى الناس من قديم ، فلا غرابة إذا كذب المشركون محمدا ، وهم إنما كذبوا دعوته إلى التوحيد ، وضاقوا من نفيه أن يكون لله أولاد ! ! .

ومن هم الآخرون الذين أعانوه ؟ ولم يَدَّعُوا الرسالة لأنفسهم ؟ .

(٢) « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملَى عليه بكرة وأصيلا »[4] والمُمْلون فى زعم هؤلاء من أهل الكتاب الأولين ، تُرَى هل أعانه النصارى على نفى التثليث ؟ أو أعانه اليهود على فضح مثالبهم وهدم دولتهم ؟ إن هذا مجون من القول ! .

---

(١) الفرقان : ١ (٢) الفرقان : ٢ (٣) الفرقان : ٤ (٤) الفرقان : ٥

(٣) « وقالوا : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا »[١] !! لايعيب بشرا ـ رسولا كان أو غير رسول ـ أن يأكل الطعام ، فهذه طبيعة الناس التى خلقوا بها .

وماعسى أن يفعل الملك معه ؟ أينوب عنه فى البلاغ ؟ فلماذا اختاره الله إن كان عاجزا عن تفهيم الناس ؟ .

أيؤيده عند التكذيب ؟ إن الله لم يترك رسولا له دون أن يمنحه تأييده الأعلى !! .

(٤) « وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا »[٢] .

ومضت سورة الفرقان تحصى أقوال الكافرين واعتراضاتهم :

(٥) « وقال الذين لايرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا !! لقد استكبروا فى أنفسهم وعَتَوْا عُتُوًّا كبيرا . يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا »[٣].

أى : تقول الملائكة عندما تلقى المشركين يوم الحساب : لابشرى لكم ، فهى حرام محرم عليكم ، ثم لاقيمة لما قدمتم من أعمال لقد جعلها الله هباء ! ويلا حظ أن المشركين من قريش كالمشركين من قوم نوح ، كأقوام آخرين طلبوا نزول ملائكة ، ورفضوا الانقياد لبشر أنفة أن يتبعوا واحداً منهم ، وهذا الكبر أرداهم . . .

ثم جاء اعتراض آخر :

(٦) « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . . . »[٤] لماذا ينزل القرآن منجّما حسب الحوادث ؟ هلاّ نزل دفعة واحدة ! وكان الجواب : « . . . . كذلك لنثبت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا »[٥] لكل حادث حديث ، ولكل تساؤل يجدُّ جواب جديد ! .

ذلك ومن الشائعات الباطلة أن الكتب الأولى نزلت دفعة واحدة . إن كتابة العهدين القديم والجديد استغرقت قرونا طويلة ، ، فلماذا ينزل القرآن جملة واحدة ؟! .

(٧) «وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ! أهذا الذى بعث الله رسولا؟ . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها . . . »[٦] وهذا القول اعتراف بأن القرآن زلزل معتقداتهم ، وأبان لهم زيفها ، والمشركون مع صدْمة الدليل ينكشف لهم باطلهم ويكادون يعترفون بالحق! كما وقع لقوم إبراهيم

---

(١) الفرقان : ٧ (٢) الفرقان : ٨ ـ ١٠ (٣) الفرقان : ٢١ ، ٢٢ (٤) الفرقان : ٣٢
(٥) الفرقان : ٣٢ (٦) الفرقان : ٤١ ، ٤٢

حين رأوا أصنامهم التى يعبدون قطعا مبعثرة ، لقد كادوا يؤمنون بالله « فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون »[1] ثم ألحّ عليهم العناد والتعصب فنكسوا على رءوسهم وبقوا على باطلهم .

كذلك تراجع كفار مكة عن الحق بعدما استبان لهم ، وأخذوا يستهزئون بصاحب الرسالة «وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا »[2]؟ .

ثم أرسل القرآن حكما عاما على عبيد أهوائهم ، إنهم دواب تمشى على قدمين « أرأيت من اتخذ إلّهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »[3] وتحقير الخصوم مقبول يوم يكون إنصافا للحقيقة وصونا لكرامتها . . . لاسيما إذا كان أولئك الخصوم يباهون بقصورهم ، ويفتخرون بترفهم .

ولاشك أن شريفا يلبس الأسمال خير من وضيع يخبُّ فى الحرير . .

وفى عصرنا هذا لحقت بالحق هزائم أزرت به ، وربما وجدْتَ عابد وثن يركب الطائرة ، وموحّدًا لله يشقّ عليه السير فى الأرض . . ! وعلى ضوء ذلك تفهم هذا الاعتراض الأخير .

(٨) « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا»[4] والرحمن من الأسماء الحسنى ، ولا يوصف به إلا الله سبحانه ، فهو كاسم الذات « قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمن »[5] وقد عزّ على المشركين أن يَدَعُوا ما يألفون من أوثانهم ، ويسجدوا لله الرحمن الواحد الأحد ، فقالوا للرسول : مانطع أمرك ! وانصرفوا عنه نافرين ! .

وفى هذه السورة عومل الكفار بأسلوبين ، أولهما : تخويفهم مما أصاب الأمم الأولى أن يحيق بهم ، فحكى لهم مصير الفراعنة ، ومصير عاد وثمود ، وأصحاب الرسّ ـ وهم قوم كانوا يفلحون الأرض حول بئر لهم ـ ثم ذكرهم بهلاك قوم لوط « ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطرَ السوْء ، أفلم يكونوا يرونها ؟ بل كانوا لايرجون نشورا »[6] .

ولهذا التخويف أثره أحيانا ، ولكن الأسلوب الآخر أوقع وأخلد ، وقد استخدمه القرآن كثيرا : وهو إثارة العقل حتى يرعوى ، وهو ماسوف نتحدث عنه .

فى سورة الفرقان آيات تهيب بالعقل أن يفكر فى ملكوت السموات والأرض ، بدأت بالحديث عن الظلّ ! « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ؟ »[7] .

---

(١) الأنبياء : ٦٤ (٢) الفرقان : ٤٢ (٣) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤ (٤) الفرقان : ٦٠
(٥) الإسراء : ١١٠ (٦) الفرقان : ٤٠ (٧) الفرقان : ٤٦

إننى أرى ظلى أحيانا ضِعْفَ قامتى ، ثم بعد حين يتقلص حتى يقع تحت قدمىّ ! كيف يمتد وينكمش ؟ وقد ذكرت أن ظل الطائرة يسابقها وهى تهبط إلى الأرض ، وأن للكواكب ظلالا ينشأ عنها الخسوف والكسوف ، وأن كل شىء له ظل يتبعه « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال »[1] ونحن عندما تنسخ الشمس ظلاّ نتحول إلى مكان آخر كما قال الشاعر :

وإن صريح الرأى والعقل لامرئٍ   إذا بلغته الشمس أن يتحولا . . . !

هل فكر أين ذهب الظل ؟ وبأى سرعة يسير على وجه الأرض أو فى جو السماء ؟ هل فكر فى لطافة القدرة الإلَهية التى تصنع ذلك دون جهد ولا تكلّف ؟ .

وندع الظل إلى حركتى الليل والنهار ، ومنامنا عندما يضمنا الليل فى أستاره ! عندما آوى إلى فراشى أحسبنى سأهمد وأستريح . . !

ولكن سرعان ما أقول : قد أغمض عينى ، لكن قلبى باق يدقّ ، وصدرى يعلو ويهبط ، وحركات الجهاز الهضمى فى شغل موصول باعتصار مابها . .

إن عمل الله فى جسمى لاينتهى إلا بالموت المجهز ! ومع ذلك فقلما نذكر الله ، ونحن مانخرج من بين أصابع القدرة !! ما أطول كنودنا . .

ونحن سكان وادى النيل قلما نرقب المطر ، لأن النهر قريب منا نغترف منه مانشاء ، لكن من أين أتى النهر ؟ لقد ظلت السحب تقبل من المحيط الهندى حاملة الغيث تهمى به آناء الليل وأطراف النهار ، ثم تنحدر المياه إلينا فى نهر ميمون الغدوات والروحات ، تؤمّن حاجاتنا من الماء الطهور وحاجات أرضنا إلى الرى والخصب طول العام ! .

أليس يتناولنا قوله تعالى : « وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيى به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسىّ كثيرا»[2] .

وفى مدننا وقرانا نفتح الصنابير فيسيل الماء دون كدٍّ ، إننا أسعد ممن ينقلون فى الجرار أو على ظهورهم !!« ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا »[3] .

إن الإيمان قريب المصادر ، إنه تحت العين لمن يبصر ، ومع ذلك فما أكثر الملاحدة . . !! .

وبعد سرد لمظاهر القدرة ، وآيات الله فى الآفاق يقول سبحانه . . « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا »[4] تنامت رحمته وعمّت بركته ، والآية بهذه القراءة

---

(١)الرعد : ١٥   (٢) الفرقان : ٤٨ ، ٤٩   (٣) الفرقان : ٥٠   (٤) الفرقان : ٦١

تشير إلى الشمس وأسرتها المعروفة ، وهناك قراءة تقول : « وجعل فيها سُرُجا » وهى تشير إلى عوالم أخرى ، وقد أثبت العلم أن عالمنا واحد من عوالم تحصى بالألوف ، وأننا فى حساب الكون الكبير شيء تافه ، وأننا خلقنا لنواجه اختبارا دقيقا جدًّا : تُرَى هل سنذكر أم ننسى ، هل سنكفر أم نشكر ، وبعضنا مختبر بالبعض الآخر كما جاء فى هذه السورة : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا » (١)

ترى من ينجح فى هذا الاختبار ومن يفشل ؟ ينجح فيه عباد الرحمن ، ويفشل عباد الشيطان !

وقد شرعت السورة فى سرد وصايا عشر هى خصائص عباد الرحمن ، وهذه الوصايا تنضم لأمثالها فى سور أخرى لتتكوّن من جملتها صورة السلوك الإسلامى الوضىء :

قال تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (٢)

والمشْى الهوْن لايعنى البطء أو التهاوت ، إنما يعنى الاعتدال وعدم التكلف . .

ومخاطبة الجاهلين للناس تنطوى على الشراسة ، فلْنَلْقَ الخصام بالسلام والتجاوز ، فالأمر كما قيل :

لو كل كلب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقالا بدينار . . . !

« والذين يبيتون لربهم سجّدا وقياما » (٣) لابد من نوم يُجِمُّ الجسد ويعين على العمل ! .

والمهمّ ألا ننام عن صلاة العشاء ونوافلها ، وأن نستيقظ قبيل نداء الفجر نستفتح النهار بخير، فإذا صلى المرء العشاء فى جماعة والفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله . . .

« والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما» (٤) . إنها غرامة مهلكة يصحبها الخزى والبلاء المقيم ، وينبغى لكل مؤمن أن يزحزح نفسه عن ذلك المستقبل الأسود ، وليقاوم تيارات الجاهلية الحديثة التى تعلّقه بالدنايا ، وتذهله عن الواجبات .

« والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٥) إن البخل خسّة ، والإسراف سفه ، ويعجبنى قول المتنبى فى بيت واحد جمع ثلاث حكم :

ذكر الفتى عمره الثانى ، وحاجته ماقاته ، وفضول العيش أشغال . . !!

« والذين لايدعون مع الله إلّها آخر ، ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون » (٦) : هذه جرائم ثلاث تنتشر بين الناس على تفاوت ، قد يكون أولها الزنا ، ثم عبادة النفس والهوى مع

---

(١) الفرقان : ٢٠ (٢) الفرقان : ٦٣ (٣) الفرقان : ٦٤ (٤) الفرقان : ٦٥

(٥) الفرقان : ٦٧ (٦) الفرقان : ٦٨

الله أو من دون الله ، ثم قتل النفس . . . . « ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . . . »[1]

ومن أساء يستطيع الإحسان ، ومن أسَفَّ يستطيع التوبة ، والتوبة معروضة على الناس كلهم مابقوا أحياء ، وعندما يغيرون أنفسهم يتغير مابهم . .

«والذين لايشهدون الزور وإذا مرُّوا باللغو مرّوا كراما »[2] المشغول بالجدّ والمربوط بالحقّ لايشهد زورا ولا يقول لغوا . . ! .

« والذين إذا ذكرُّوا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً »[3] إن تلاوة القرآن تتطلب يقظة القلب ، وحضور الوعى ، وتذوق المعانى ، وشهود المتكلم سبحانه ! .

فمن قرأ وهو غائب الفؤاد لم يستفد من حركة اللسان شيئا .

« والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما »[4] أى : قدوة ، فليست الآية طلبا للرياسة ، واستقرار العين على الزوجة أساس العفاف والطهر ، واستقرارها على الذرية أساس الرضا ، وحصانة من الحسد .

«أولئك يجزون الغرفة بما صبروا »[5] : المنزلة الرفيعة فى الجنة ، جعلنا الله من أهلها بتجاوزه ومغفرته . . .

---

(١) الفرقان : ٦٨ ، ٦٩ (٢) الفرقان : ٧٢ (٣) الفرقان : ٧٣ (٤) الفرقان : ٧٤
(٥) الفرقان : ٧٥

سورة الشعراء

لقيت الدعوة الإسلامية مقاومة شديدة من جمهور المشركين الذين استنكروا أن يكون الله واحدا وأن يكون محمد رسوله ! .

وهم قد مَردوا على حياة لاتعرف الوحى ، ولا تصدق بآخرة . وكانت نظرتهم إلى بقايا أهل الكتاب تنطوى على الزراية والاستهانة ، ولذلك أعرضوا عن الإيمان بالرسالة الخاتمة ، وكلما ازداد الرسول حرصا على دعوتهم كذبوه وكابروه ، وكأنما شعروا بمزيد حرصه على إيمانهم فأرادوا إحزانه بالانصراف عنه ، وإدخال الكآبة على نفسه ! .

فقال الله له : « تلك آيات الكتاب المبين . لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » !! [١] أقاتلٌ أنت نفسك وراءهم ؟ « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين»[٢].

لكن حكمة الله قضت أن تكون آية محمد وحيا يُتلَى تستمع إليه أجيال المستقدمين والمستأخرين . وهو يخاطب العقول ويهاجم الخرافات الشائعة .

ماذا يطلبون ؟ يطلبون آية مادية تبهرهم فيستسلمون كما يقولون ! .

ما أكثر الآيات من حولهم لو كانت لهم بصيرة مَجْلُوَّة : آيات فى المكان والزمان ! .

فأما المكان فقد اكتفى القرآن الكريم بذكر الأرض التى تبدو جرداء عفراء وبعد حين تتحول إلى رقعة نضيرة خضراء حافلة بالثمر الطيب والجنى الكريم !! « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟ إن فى ذلك لآية . وماكان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم »[٣] .

والآيتان الأخيرتان تكررتا ثمانى مرات فى هذه السورة : مرة واحدة بعد آية مكانية فى الأرض التى نعيش فوقها ، والتى منها بدأنا وإليها نعود ، وسبع مرات بعد آيات توحى بها أحوال الأمم الأولى ، تلك الأمم التى جاء المرسلون إليها بمثل الوحى الذى جاء به محمد ، فأبت إلا الصدود والكفران .

فآبت بالهلاك والخسران ، فهل يريد العرب أن يردوا المصير نفسه ؟! .

---

(١)الشعراء : ٢ ، ٣ (٢)الشعراء : ٤ (٣) الشعراء : ٧ـ٩

والأنبياء هم سائقو الرشد إلى الفكر الإنسانى ، وهم أطهر الناس قلوبا ، وأشدهم إخلاصا ، ماطلبوا كسبا ماديا ولا أدبيا من أحد .

بل إنهم جميعا ردّدوا ما جاء على لسان نوح الذى قال الله فيه : « كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ؟ . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين »[1] .

إن الأنبياء ماتطلب من الشعوب إلا تقوى الله ، وماتطلب على رسالتها أجرًا من أحد ، وماجرى بخاطر أحدهم أن يطلب فى الأرض علوا أو فسادا .

ومع ذلك عوملوا بغلظة ، وقتل بعضهم وهو يؤدى واجبه ، فماذا كانت العاقبة ؟ « أفرأيت إن متّعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ماكانوا يمتعون ؟ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وماكنا ظالمين »[2] .

وتضمنت سورة الشعراء جملة الأمم القديمة ، موسى مع فرعون ، وإبراهيم مع قومه ، وكذلك قصص عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . . .

وظهرت فيها جميعا وحدة العرض الحسن المنزّه عن كل غرض ، ووحدة الردّ السيئ المشوب بالعناد والغدر . . .

وننظر أولا فى قصة موسى فيستوقفنا تساؤل فرعون عن الله ، ماهو ؟ .

إنه يسأل عن الكنه وذاك مستحيل ، فنحن لانعرف كنه أنفسنا فكيف نعرف خالقنا ؟ .

ولذلك جاء الردّ بالإجابة الممكنة « قال فرعون : ومارب العالمين . قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين ! . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . . . »[3] إلخ .

والجواب هنا يشبه الجواب فى سورة طه ، وقد رفض فرعون الإيمان بهذا الإلّه ، وقال لموسى : «لئن اتخذت إلها غيرى لتكونن من المسجونين »[4] ! .

ثم تحدد يومٌ عامّ يعرض فيه موسى ماعنده ، ويواجه السحرة ، وطلِب من الجماهير أن تحضر المباراة ! ويلفت نظرنا هنا أن الناس لم يحدّدوا موقفهم إذا انهزم السحرة ، بل الذى دار على ألسنتهم : « وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين »[5] ! .

إن اتّباع موسى لم يخطر بالبال . . ! وأوغلُ فى البعد أن ينهزم السحرة ويتبعوا موسى ، ويخلعوا

---

(١) الشعراء : ١٠٥_١٠٩ (٢) الشعراء : ٢٠٥_٢٠٩ (٣) الشعراء : ٢٣_٢٧
(٤) الشعراء : ٢٩ (٥) الشعراء : ٣٩ ، ٤٠

إيمانهم بفرعون !! ولكن ذلك ماحدث ، وقد جُنّ جنون فرعون وغلب عليه صلف ألوهيته المزعومة « قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيدكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين »(١)

والحق أن موقف هؤلاء السحرة لاينفكّ يثير العجب ، لقد انتقلوا فى لحظة قصيرة من الارتزاق بالضلال إلى قمة التضحية بكل شىء فى ذات الله ، فسبقوا سبقا بعيدا ! .

أما فرعون فقد بقى على غروره وعناده ، وتساءل بغباء كيف يؤمن الناس دُون أن يأخذوا منه إذنا ؟ كأن ضمائرهم ملك له !! .

وتراخت الأيام ، وقرر موسى أن يخرج من مصر مع قومه فرارا من العبودية والعذاب ، فعبأ فرعون جيشه وخرج وراءهم كى يستعيدهم ، واقترب الفريقان حتى أصبحا على مدّ البصر .

وقال اليهود « إنّا لمدركون » (٢).

وروتْ التوراة جزعهم وفرقهم وصياحهم لولا أن موسى قال : « كلا إن معى ربى سيهدين »(٣) واعترض البحر الأحمر الطريق ، وهنا تدخلت العناية العليا ، فإن موسى ضرب البحر بعصاه ، فانحسرت المياه يمينا ويسارا ، وانكشفت اللجج عن طريق يابس عبر منه الإسرائيليون إلى الشاطئ الآخر .

وحاول فرعون أن يتبعهم فأطبق عليه الموج من كل جانب ، وانتهت قصة ألوهية كاذبة ، عربدت حينا ثم لفظت أنفاسها بين الماء والطين .

إن الذى آتى إبراهيم رشده زوّده بإيمان سهل سائغ لاتقعُّر فيه ولا التواء .

ونحن نزداد شعورا بذلك كلما قرأنا كتب الفلاسفة الإلّهيين ، وطالعنا مابها من تعقيد .

أما إبراهيم فهو يقول عن ربّه : « الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين »(٤) .

ونبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولى الناس بإبراهيم ، وأقربهم إليه .

والدعوة إلى التوحيد شعار الأنبياء كلهم ، فهم جميعا خصوم الشرك ، وقد طاف إبراهيم أقطارا شتى وهو يحارب الأوثان .

ومع أن البشر الذين أشركوا خصوا الإلّه الأعظم بمكانة خاصة ، إذ جعلوا الآلهة الأخرى وسطاء له وشفعاء عنده ، فإنهم سرعان ماسوّوْهم به ، بل ذكروهم دونه !! .

---

(١) الشعراء : ٤٩ (٢) الشعراء : ٦١ (٣) الشعراء : ٦٢

(٤) الشعراء : ٧٨ ـ ٨٢

ولذلك جاء فى قصة إبراهيم هنا عن حديث المشركين فى النار : « قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فمالنا من شافعين . ولا صديق حميم »[١] .

والحضارة المعاصرة يغلبها النسيان ، وإذا كان الشرك يشوب عقائدها فهى فى ولهَها بالحياة الدنيا لاتذكر الله ، ولا ماجعلته جزءا منه !! .

والقرآن الكريم ذكر قصة إبراهيم بعد قصة موسى ، وقبل قصة نوح ، لأن السرد التاريخى لا يعنيه . إنما تعنيه العبرة التى تنفع الناس !! .

وفى قصة نوح نلحظ أن ازدراء الفقراء والضعفاء بدأ من عصر مبكّر ، فالغَنىّ يكره الفقير ، والقوى يحتقر الضعيف ، وكأن بذور نظام الطبقات وجدت من فجر الإنسانية .

والفقراء بداهة أسرع الناس إلى اتباع الأنبياء ، لأنهم يلتمسون لديهم الإنصاف والكرامة ، وذاك مالايعجب الكبراء ولذلك قالوا لنوح : « . . . أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين»[٢] .

ومعروف أن مشركى مكة بعد أعصار طويلة طلبوا مثل ذلك من محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأبى وقال الله له : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه . . . »[٣] .

ماهذا الشبه . . . « أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون . فتولّ عنهم فما أنت بملوم »[٤] .

على أن قصة الإيمان والكفر ليست قصة أغنياء وفقراء ، فقد آمن بمحمد المكثرون والمقلّون ، وجمعتهم الصلوات فى صفوفها المُسَوَّاة ، ورضى كل منهم بالاختبار الإلهى الذى تعرّض له !! .

ولعل أقرب القصص إلى طبيعة العصر الحاضر قصة عاد وثمود ، وبينهما على بعد المكان قرب شديد ! كانت عاد من الناحية الجثمانية عمالقة ، قامات مديدة ، وعضلات مفتولة ، وعافية عاتية .

وكان القوم من الناحية العقلية أصحاب ذكاء ودهاء يضرب بهما المثل .

قال النابغة الذبيانى يمدح الغساسنة :

أحـــلام عـــاد ، وأجســـاد مطهرة   مـن المعقَّــة والآفــات والأَثَـم ! .

ولكن عادا أبطرها هذا التفوّق المادى والأدبىّ وقالوا : من أشدّ منا قوة ؟ .

---

(١) الشعراء : ٩٦ ـ ١٠١ (٢) الشعراء : ١١١ ـ ١١٥ (٣) الأنعام : ٥٢
(٤) الذاريات : ٥٣ ، ٥٤

وأخذوا يستمتعون بالحياة على نحو مفرط ، يتطاولون فى البنيان ، ويذهبون بأنفسهم ، وإذا وقع بأيدهم ضعيف بطشوا به ، لايخافون قصاصا ! مَنْ يقدر عليهم ؟ .

قال لهم نبيهم هود : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون »[1] والريع : الربوة أو التل أو المكان المرتفع .

والآيات التى بنوها قيل : علامات تدل على الطرق فى هذه المتاهات الرملية ! وقيل : بل القصور المشيدة ، والمصانع ، وقيل : خزانات للمياه ، وقيل : حصون سامقة . .

وعند التأمل نجد أن بناء البيوت العالية والسدود المائية ليست مما يؤاخذ امرؤ عليه ! ولذلك قال العلماء : إن الذى أخذ عليهم الترف الشديد ، والإغراق فى حب الدنيا ، والذهول عن الله ، واجتياح حقوق الآخرين ! .

ونحن نشهد فى المعاصرين من أبناء أوروبا وأمريكا أنهم يشيدون ناطحات السحاب ، ويتطاولون فى البنيان ، ويذكرون شهواتهم ، وينسوْن وصايا ربّهم .

فإذا حاربوا فجّروا الذرة بالهلاك العام ! وإذا خاصموا لم يبالوا بما يلقى عدوهم من هوان وخسف !! .

وغضَبُ الله على عاد وثمود وأشباههم فى الآخرين إنما يجىء من هذه الناحية ، مع جهل بالله ، وذهول عن لقائه وجرأة عليه . .

ثم جاء قوم لوط ، والغريب أن الحضارة الحديثة مهددة بالاستغراق فى الملذات ، والإقبال على الشذوذ ، ولما بدت نذر الموت ماصاح أحد بضرورة العفاف والتقوى ، بل تضافرت الجهود العالمية على استكشاف وسيلة تجمع بين اللذة الحرام والنجاة من العواقب المهلكة !! .

وهذا لون من الإسراف يقتل الشعوب « أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون »[2] .

وقد دمّر الله هذه القرى ، وللكافرين أمثالها . . . ! .

ثم ختمت هذه القصص القديمة بشعيب وأصحاب الأيكة الذين قيل لهم : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاط المستقيم . ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين »[3] .

---

(١) الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣١ (٢) الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦ (٣) الشعراء : ١٨١ ـ ١٨٣

ولكن قوم شعيب أكلوا الحقوق ، واستحلّوا المظالم فبادوا . .

والأمة الإسلامية مكلفة بكل خير كلفت به الأمم الأولى .

ورسالتها العامة لسائر الخلق تجعلها حاملة لمواريث الهداة السابقين ، وإذا كانت بقايا أهل الكتاب قد نسيت ـ أو تناست ـ مالديها ، فلنذكر نحن أن محمدا صاحب رسالة عامة خالدة ، جمعت ماتناثر خلال القرون الأولى من عظات وعبر ، واستبقته وحيا يتلى إلى آخر الدهر .

سورة النمل

سورة النمل من القرآن النازل بمكة . وقد حوت عجائب عن عالم الحيوان ربما كشف عنها المستقبل القريب ، وإلى ذلك تشير الآية الأخيرة فى السورة : « وقل : الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وماربك بغافل عما تعملون »(١) .

أما صدر السورة ففيه خلاصات سريعة عن مصائر المؤمنين والكافرين ، فالهدى والبشرى للأولين ، والضياع والخسار للآخرين .

والواقع أن هذا التمهيد السريع جاءت السورة فى الجزء الأخير منها بتفصيله ، ولكن بعد إيراد أربع قصص : عن موسى وفرعون ، وعن سليمان وسبأ ، وعن ثمود ، وعن قوم لوط . . .

كما جاء فى السورة إيماء وجيز عن الدابة التى تخرج قبيل الساعة .

فلننظر أولا إلى هذه القصص نظرة عجلى : فى قصة موسى يقول الله له عندما فرّ بعد مارأى عصاه تتحول إلى ثعبان : « ياموسى لاتخف إنى لايخاف لدىّ المرسلون . إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم »(٢) .

فى هذا الكلمة طمأنة لموسى أن الله غفر له قتل خصمه فى مصر ، فقد قال بعدما صرعه : «رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم »(٣) . وهو هنا يؤكد هذه المغفرة، ويبشره بالرسالة !! .

ثم يذكر الفراعنة بأنهم كفروا بالله عن عمد وإصرار وهم عارفون بأن موسى على حق ، فليس لهم أى عذر فى حربه ! « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين »(٤) .

وقبل أن نشير إلى قصة سليمان نذكرّ بقوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . . . »(٥)

---

(١) النمل : ٩٣ — (٢) النمل : ١٠ ، ١١ — (٣) القصص : ١٦

(٤) النمل : ١٤ — (٥) الأنعام : ٣٨

هذه الأمم تعيش وتتفاهم بلغات خاصة بها ، ومادام هذا التفاهم مُستيقنا ، فإن فى مكنة الناس أن يعرفوا أسراره .

وقد كان سليمان من المحيطين بلغات الطيور والحشرات ، وعلمه الله منها مايعجز عنه الآخرون : « عُلّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين »(١) .

وقد أسمعه الله قول النملة لجماعتها : « ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » (٢) .

وذكرت السورة أن الهدهد أتى سليمان بخبر بلقيس ملكة سبأ التى كانت تعبد الشمس ، وقد عجب الهدهد لما رأى أنهم وثنيون يعبدون من دون الله بعض مخلوقاته « فهم لايهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون . . . » (٣) . وقد خطّ سليمان كتابا إلى هذه الملكة جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين »(٤) .

والإسلام هو دين الأنبياء كلهم ، ماشذ منهم أحد ، لأن أساسه الإيمان بالله ، والخضوع له ، والاستعداد للقائه . .

وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد سواء فى ذلك .

وقد تريثت بلقيس فى الرد ، وأحبت أن تعرف هل سليمان واحد من الملوك الذين يطلبون المال والسيادة ؟ أم هو من الهداة إلى الله المترفعين عن الدنيا ؟ فلما جاء سليمان وفدٌ يحمل إليه التحف والهدايا أدرك ماهنالك .

وقال للوفد : « أتُمِدُّونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون» (٥) .

وأحبَّ أن يُرىَ الملكة معجزة تشهد له بالصدق ! فقال لجلسائه : « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » ؟(٦) . وجاء العرش بقدرة الله إلى بيت المقدس من اليمن فى لمح البصر ! .

ورأى سليمان عظمة ماوقع فقال : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم » (٧) .

وأظن ـ تفسيرا لما وقع ـ أن المادة تحولت إلى طاقة تجرى بسرعة الضوء ، ثم عادت سيرتها الأولى عرشا تجلس عليه الملكة . .

---

(١) النمل : ١٦ — (٢) النمل : ١٨ ، ١٩ — (٣) النمل : ٢٤ ، ٢٥

(٤) النمل : ٣٠ ، ٣١ — (٥) النمل : ٣٦ — (٦) النمل : ٣٨

(٧) النمل : ٤٠

وقد نظرت بلقيس إليه فى دهشة ، وقيل لها : «أهكذا عرشك قالت : كأنه هو ! »[1] وهى إجابة تدل على تمام عقلها ، ثم رأت من حال سليمان ماعرفها أنه رسول من الله ، فآمنت به وقالت « . . وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين . . . »[2] .

وتلت قصة ثمود قصة سبأ ، وثمود نموذج آخر لعاد فى الكبر والغطرسة .

فلما جاءهم صالح يدعوهم إلى الله تشاءموا منه ، وتآمروا على قتله « قالوا : تقاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهله ثم لنقولن لوليّه ماشهدنا مهلك أهله . . . »[3] .

ويبدو أنهم بدل أن يقتلوه قتلوا الناقةالتى خلقها الله معجزة له ، فذاقوا العقاب الأليم «ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا . . . »[4] .

ثم جاءت قصة لوط مع المدينة الفاسقة ، كان أهلها قد مسخت فطرتهم ، واستمرأوا الدنس ، وجعلوه علنا فى مجالسهم ونواديهم .

ولوط إسرائيلى مهاجر إلى هذه المدينة ، فلما فوجئ بخبثها نهاهم عنه ، فرأوا طرده من مدينتهم ، ويظهر أن فجورهم قد استقر فى أنفسهم ومجتمعهم .

« ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون »[5] .

وقد دمر الله القرية وجعل عاليها سافلها . .

ما فعله قوم لوط معروف عند أهل الكتاب ومصيرهم الكالح مذكور عندهم ، ومع ذلك فقد استباحوه ، ومنعوا معاقبة فاعليه ، فهل هذا إلا الكفر ؟ .

وعندما ننظر إلى أول السورة نجده مهادا لهذه الأحداث ، ونذيرا بعقباها : « إن الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون . أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون»[6] .

بعد أن قصَّ الله على نبيه مصائر بعض الأمم التى كذبت رسلها أقبل عليه بهذا الخطاب : «قل الحمدلله وسلام على عباده الذين اصطفى . . . »[7] .

---

(١) النمل : ٤٢ (٢) النمل : ٤٤ (٣)النمل : ٤٩
(٤) النمل : ٥٠ـ٥٣ (٥) النمل : ٥٤ ـ ٥٦ (٦) النمل : ٤ ، ٥
(٧) النمل : ٥٩

الحمد لله على هلاك المعتدين وطُهْر الأرض منهم ،كما قال فى سورة الأنعام : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين »[1] .

إن فراغ الأرض من الظلمة ، ورسوّ قواعد الحق ، نعمة كبرى تستحق الشكر ، كما يستحق التحية الأنبياء الكرام الذى صبروا وصابروا حتى انتهوا إلى هذه النتيجة المرضية .

ثم جاء هذا الاستفهام لتقرير حقيقة عظيمة : « آلله خير أما يشركون »[2]؟ .

وهو كقوله سبحانه على لسان يوسف : « يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار »[3] .

وتقرير الوحدانية أصل مشترك فى جميع الرسالات السماوية ، فإن التعدّد نبت فى الأرض فى بعض البيئات الضالّة ، ولما كان قد شاع بين العرب ، فقد وجه القرآن إليهم خمسة أسئلة تُرسى قواعد الوحدانية ، وتشرح الحقيقة لكل ذى لب :

(١) « أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإلهٌ مع الله بل هم قوم يعدلون »[4] أى يسوّون بالله غيره من أصنام، أو يميلون عن الطريق القويم ، ولايستطيع أحد القول بأن خالق السماء ومنزل الماء ومنبت الحدائق الغناء حجر أو بشر . . !! .

(٢) « أمّنْ جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون !!»[5] .

إن استقرار الأرض بمَنْ عليها فلا قلق ولا اهتزاز : أمر مدهش ، لأن للأرض حركتين : حول نفسها ، وحول الشمس ، ومع هذا الحراك المزدوج ، والانطلاق الهائل فى الفضاء لايهتز كوب ماء فى يدك ! .

ثم إن الأرض كرة وأربعة أخماسها ماء ملح .

وفى القارات أنهار وبحيرات عذبة ، ولايختلط عذب وملح ، كل مستقر فى مجراه ! لاختلاف الكثافة النوعية كما يقولون ، أفلا يسوقنا هذا إلى الله ؟ .

(٣) « أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ماتذكرون»[6] . وهذه الآية انتقلت من المكان إلى السكان ! وما يعروهم فى حياتهم من آلام تجعلهم يجأرون بالدعاء ، ويتلهفون على الفرج ، من يسوق الخير إلا الله ؟ .

---

(١)الأنعام : ٤٥ — (٢) النمل : ٥٩ — (٣)يوسف : ٣٩
(٤) النمل : ٦٠ — (٥) النمل : ٦١ — (٦) النمل : ٦٢

(٤) « أمَّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون »[١] ! الهادى للناس فى أسفارهم برا أو بحرا أو جوا هو الله ، ومرسل الرياح فى الجهات الأربع هو الله .

مَنْ من الآلهة المزعومة يفعل شيئا من ذلك ؟ .

(٥) « أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[٢] . لابرهان هنالك . ليس للكفر دليل يُسمع .

إن الإلحاد مرض ، وليس فكرا ، إنه غرور يرتكز على أوهام ولامكان له فى منطق العقل !! .

والفلسفة المادية السائدة الآن ، إنما تدور على فكرة « إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع » التى تولَّدت عن الوثنيات القديمة .

وغريب أن تتحول إلى نظرية علمية تقول : « المادة لاتفنى ولاتستحدث » .

وفى ظل هذا الخيال تنطلق الأجيال نحو صفر !! ويسود السلوك الحيوانى كل شىء « وقال الذين كفروا : أإذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين »[٣] .

وقد كلِّف النبىّ العربى المحمّد أن يعترض هذا الضلال ، وأن يصوِّر للناس الآخرة رأى العين! وأن يكوّن حضارة ربّانية تؤمن بالله ، وترتبط بالوحى ، وتستعدّ للجزاء .

والإسلام يصنع على ظهر الأرض أمة تعتبر السعى للآخرة إطار سلوكها كله ، وتقف أمام ربها صفوفا صفوفا خمس مرات كل يوم بعد نداءات مدوية بتكبير الله وتوحيده !! .

وفى سورة النمل آية تذكر أنه بين يدى الفصل الأخير فى رواية هذه الحياة سوف تخرج من عالم الحيوان دابّة يلهمها الله النطق ، تقول للبشر : كيف نسيتم ربكم ، وجحدتم عقولكم وأنكرتم خالقكم ؟؟ ماهذا الكفر ؟ .

وإنى اتصور هذه الدابّة وهى تعترض ذوى الألقاب وأصحاب المناصب ، لتقول لهم : عالم الحيوان أسعد منكم حظا ، فهو لم يحظ بعلمكم ، ومن ثم لايلام على غباء ، أما أنتم فقد منحكم الله الذكاء فحاربتموه به . . ! قُبِّحتُم من بشر !! .

« وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون»[٤] وقد وردت روايات خرافية عن هذه الدابة لاتصح ، ويكفينا فى شأنها الخبر اليقين . .

---

(١) النمل : ٦٣ (٢) النمل : ٦٤ (٣) النمل : ٦٧ ـ ٦٩ (٤) النمل : ٨٢

وانتهت هذه السورة بحديث عن الآخرة والحساب ، يقوم على هذا القانون العادل : « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكُبَّت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ماكنتم تعملون »[1] .

ولواء الدعوة إلى الله آخر الدهر معقود لصاحب الرسالة العظمى الذى صنع بالقرآن أمة وظيفتها أن تبلِّغ الوحى ، وتصنع به أمما على غرارها .

« إنما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن . . . »[2]

وسيكشف المستقبل الكثير عن مستقبل الإسلام ومستقبل الكفر فى هذه الدار المحدودة ، وفيما بعدها « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وماربك بغافل عما تعملون »[3] .

---

(١) النمل : ٨٩، ٩٠ (٢) النمل : ٩١ (٣) النمل : ٩٣

سورة القصص

بدأت سورة القصص بطمأنة المؤمنين على مستقبلهم مؤكدة أن عاقبة الظلم مظلمة ، وأن عاقبة الصبر جميلة ، وأن المستضعفين فى الأرض ستتكسر قيودهم ويستردّون حرياتهم .

وقد ساقت ماوقع لموسى وقومه مثالا على أن التاريخ يعيد نفسه .

« طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون »(١)

وفرعون هو على الأظهر رمسيس الثانى الذى امتد ملكه من نهر الكنج إلى نهر الدانوب ، وبلغ شأوا من العظمة أغراه بالألوهية والاستبداد .

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين »(٢) .

وقَتْل الأبناء واستبقاء النساء حتى لاتكون لهن عزوة ، ويستسلمن لما يراد بهن ، ولاشك أن هذا عذاب عظيم ، وفتنة مزعجة .

ولكن أيبقى هذا الفتك إلى آخر الدهر ؟ كلا ، لابد لليل من آخر . .

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »(٣) .

وهذا الكلام وإن كان حكاية للماضى إلا أنه يلقى سكينة فى نفوس المسلمين الذين يعانون من بطش المشركين وأذاهم ، ويعلق قلوبهم بغدٍ أفضل لاسيما . وقد جاء فى آخر السورة أن المطاردة التى أكرهت المسلمين على التفكير فى ترك مكة سوف تتلاشى ، « إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد قل ربّى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين »(٤) .

قال المفسرون : نزلت فى طريق الهجرة من مكة إلى المدينة ! وقد عاد المهاجرون فاتحين بعد أن خرجوا مكسورين مقهورين . .

وسورة القصص التى افتتحت بحال موسى وقومه تضمنت أمورا لم تذكر فى قصة موسى فى السورتين السابقتين :

---

(١) القصص : ١ ـ ٣
(٢) القصص : ٤
(٣) القصص : ٥
(٤) القصص : ٨٥

(١) فقد تضمنت ميلاد موسى ، والمحنة التى مربها أول حياته : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولاتحزنى إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين . . »[١] .

وتكليف أمّ أن ترمى وليدها فى البحر شيء عظيم ، ولكنها ثقة فى الله فعلت ما أمرت به .

والمتأمل فى الآية يجدها تضمنت أمرين ونهيين وبشارتين ! .

وعندما انطلق الصندوق بوديعته الثمينة رمت به الأمواج أمام قصر فرعون ، فكاد فؤاد أم موسى يطير فزعا ، ولكنها تطلعت إلى الله فى أمل ويقين : « وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا ، إن كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين »[٢] .

(٢) وقد كسا الله ملامح الطفل جاذبية تجعل من يراه يعطف عليه ويحبه .

وذاك ماجعل امرأة فرعون تقول لزوجها : « قرة عيْن لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا»[٣] فبقى الطفل حيا ، ورأته أخته التى كانت بأمر من أمها تتبع أخباره فتقدمت إلى بيت فرعون تعرض عليهم أن تجيئهم بمرضعة ! لأنه أبى أن يرضع ممن اقتربن منه ! .

وعاد موسى إلى حضن أمه ترضعه ، ولايدرى أحد ماقصتها؟ .

(٣) وكبر موسى فى قصر فرعون ، وكأنما يسّـر الله له هذه النشأة حتى لايشبّ ذليلا مثل قومه، وتعهدته الأقدار بما يرشّحه لمستقبله الخطير « ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين »[٤] .

وفى هذه الفترة من شبابه عرضت له حادثة عكّرت مقامه بمصر ، فقد شاهد رجلا من بنى جنسه يحاول أحد المصريين تسخيره فى حمل لاصلة له به ، ولا طاقة له عليه ، و اشتعلت الخصومة بينهما « فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه »[٥] .

وكان موسى على درجة بالغة من القوة ، ولكنه لم يكن يدرى أن لكمته قاتلة ! فدعا الله : «قال ربِّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له . . . »[٦]

فلما أحسّ أن الله غفر له شكر نعمة الغفران بتعهّدٍ منه أن ينصر المظلومين ويخاصم المجرمين !

ويبدو أن حاشية فرعون عرفت بالقصة وذيولها فتآمرت على قتل موسى ، الذى عرف من أحد الناصحين بماوقع ، فقرر مغادرة مصر متوجها إلى مدين شمالىّ جزيرة العرب . .

---

(١) القصص : ٧ (٢) القصص : ١٠ (٣) القصص : ٩ (٤) القصص : ١٤
(٥) القصص : ١٥ (٦) القصص : ١٦

(٤) وفى مدين تزوّج موسى من ابنة الرجل الصالح الذى آواه بعدما عرف قصته وقال له : «لاتخف نجوت من القوم الظالمين» [١] واليهود ينقمون من موسى أنه تزوّج من امرأة ليست عبرانية!

ونحن لانعرف هُويَّة الرجل الصالح الذى أسدى لموسى هذا الجميل ، ولانظنه النبى شعيباً ، وأيًا ما كان هو فقد قال لموسى : « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشقّ عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين» [٢] .

وهكذا انتقل من أمير قصر ملكى إلى راعى غنم .

والرجال العظام لا تزيدهم ولا تنقصهم هذه المناصب ، وإنما تزينهم خلال المروءة والشهامة التى تبدو فى رجولتهم ، ويعرفها الناس من مسيرتهم .

ولاشك أن هذه الفترة من حياة موسى كانت فترة تذكّر وتأمل فيما عرض له وما يعرض لقومه ، وكأنما جعلها القدر استعدادا للأعباء التى ستُرمَى على كاهله فى المستقبل القريب « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا . . . » [٣] .

وكانت هذه النار شارة اجتذبت موسى لقَدَره الجليل « فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين . . . » [٤] .

وهكذا تحوّل الراعى إلى رسول كريم مكلف بتحرير شعب وتبليغ رسالة . ! ولكن موسى تذكر قصته مع الفراعنة ، وطلب من الله أن يؤازره بأخيه هارون ! فقال الله له : « سنشدّعضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما ، بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » [٥] .

كان لقاء موسى بالسحرة يوما مشهودا ، فقد أبطل كيدهم وأذل كبر فرعون وآله ، وقد شرح هذا اللقاء فى سورة الأعراف وطه والشعراء ، وصار مثلا يضرب ، كما قال الشاعر :

إذا جاء موسى وألقى العصا   فقد بطل السحر والساحر

ولكن قصة السحرة طويتْ فى سورة القصص ، وأشير إليها بقوله تعالى : « فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ، قالوا ماهذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » [٦] .

ولكن شيئا آخر ذكر مكانها ، فإن فرعون طلب من وزيره هامان أن يبحث فى السماء عن إله موسى ! « وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إلّه غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحًا لعلى أطلع إلى إلّه موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين » [٧] !.

---

(١) القصص : ٢٥ (٢) القصص : ٢٧ (٣) القصص : ٢٩ (٤) القصص : ٣٠
(٥) القصص ٣٥ (٦) القصص : ٣٦ (٧) القصص : ٣٨

إن الأحمق ظن أن الله مع الطيور فى الجو ، أو لعله جالس على السحاب !! .

وقد تكررت هذه الحماقة فى عصرنا ، فإن واحدا من رواد الفضاء الروس زعم أنه بحث عن الله فى جو السماء فلم يجده ، بل وجد فقط أحد زملائه الروّاد !! .

وشاء الله أن يحترق ثلاثة من الرواد وهم يهبطون إلى الأرض اختناقا من قلة الهواء فى الجهاز الذى طاروا فيه . . !! .

إنّ الكفر ضلال بعيد ، ولست أدرى كيف يُبحث عن الله فى الجوّ ، وهو مُنْبت الغذاء الذى نأكله ، وصانع الهواء الذى نستنشقه .

وآياته فى الأرض أقرب إلينا من آياته فى السماء ، ولكنه العمى الذى طمس الأفئدة «وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لاَيُنصَرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين»[1] .

وانتقل السياق من الكلام عن موسى إلى الكلام عن محمد نبىِّ العقل والنور ، وصاحب الكتاب الذى بنى الإيمان على الفكر والنظر والاستدلال والاستقراء . .

لقد ذكر محمد قصة موسى فى أرض مدين وكيف بنى بأهله هناك ، وذكر كيف نودى لتلقى الرسالة ، وكلف بالعودة إلى مصر لدعوة الفراعنة إلى الحق ! .

من أين جاءته هذه الأنباء وهو أمى نشأ فى بيئة وثنية ؟ « وما كنت بجانب الغربىّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وماكنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وماكنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين »[2] .

لقد أيد الله نبيه بكتاب جدَّد الرسالات الأولى وصحّحها ، فماذا كان موقف الناس منه ؟ طلبوا خوارق كالتى صاحبت رسالة موسى ! فهل آمنوا بموسى عندما شهدوا معجزاته ؟ .

إن اليهود الذين نجوا من الغرق طلبوا من موسى بعد نجاتهم أن يصنع لهم وثنا يعبدونه كسائر الوثنيين ، فأى إيمان هذا ؟ .

أما الذين تدبروا القرآن وانتفعت أفئدتهم بالوحى فقد هدموا الأصنام ، وأناروا بالتوحيد المشارق والمغارب ، يقول الله سبحانه فى طلاب الخوارق : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا ، وقالوا : إنا بكل كافرون »[3] .

---

(١) القصص : ٤١ ، ٤٢ (٢) القصص : ٤٣ ، ٤٤ (٣) القصص : ٤٨

إن فقدان النظر السديد واتباع الهوى الغالب لايقودان إلا إلى البوار ، والواقع أن الوثنية الأولى قاومت الإسلام بكل ما أوتيت من قوة فلم يؤمن إلا من عصم الله .

أما أهل الكتاب فقد حاسنهم الوحى وطالبهم بالانصاف ، فمن آمن وجد أعظم ترحيب ، وفيهم يقول الله سبحانه : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا . . . »[1]

وفى الحفاوة بالمؤمنين من أهل الكتاب قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يُؤتَوْن أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدركنى فآمن بى واتبعنى وصدقنى فله أجران ورجل كانت له أمة ، فغذّاها فأحسن غذاءها ، ثم أدبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوجها فله أجران . وعبد مملوك أدى حقّ الله تعالى وحق سيده فله أجران » .

إن غرب آسيا والشمال الإفريقى كانا مليئين بأهل الكتاب فى ظل الحكم الرومانى ، فدخلوا الإسلام إثر تعرّفهم عليه ، واطمئنانهم إلى حقائقه .

أما وثنيو الجزيرة العربية فقد صدّوا عن السبيل أول أمرهم ، وأعلنوا على الدين الجديد حربا ضارية ، وقد تألم الرسول لهذا الموقف ، فقال الله له : « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء »[2] .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى أبى طالب الذى كان النبى شديد الرغبة فى إسلامه ، وكان يعلم صدق ابن أخيه ، ولكن انسياقه مع العرف السائد جعله يأبى الدخول فى الإسلام ، وقال :

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة ، أو حذار مسبّة ... لوجدتنى سمحا بذاك مبينا !!

ومثل ذلك ماروى عن واحد من رجالات قريش :

«إنا لنعلم أن الذى تقول حق ، ولكن إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة » فنزل قوله تعالى : « وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتخطّف من أرضنا ، أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لَدنَّا ولكن أكثرهم لايعلمون »[3] .

وقد تهدَّدهم القرآن الكريم بعواقب هذا الكفر : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين »[4] .

وتتابعت النصائح تغرى باتباع الحق ، والحذر من شهوات الدنيا : « وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وماعند الله خير وأبقى أفلا تعقلون »[5]؟ .

(١) القصص : ٥٢ ـ ٥٤ (٢) القصص : ٥٦ (٣) القصص : ٥٧ (٤) القصص : ٥٨

(٥) القصص : ٦٠

المؤسف أن كثيرا من الناس يبيعون الحقيقة بالثمن البخس ، ولايبالون بعواقب الطيش .

ما ضرَّ الفرعون الحاكم لو عقل وعدل بدل أن يستكبر ويطغى ويمشى مختالا على رقاب العباد؟ ماضرّ الأتباع المسحورين لو أنصفوا وأحسنوا بدل أن يأووا إليه ويسارعوا فى هواه ؟ .

إن القرآن الكريم ينعى على الفريقين هذه الوثنية البشرية فيقول جلّ شأنه للأولين : « ويوم يناديهم فيقول : أين شركائى الذين كنتم تزعمـون . قال الذين حق عليهم القول » يعنى السادة ـ « ربنا هؤلاء الذين أغوْينا ، أغويناهم كما غَوْينا تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون » [1] ويقول للآخـرين : « وقيـل ادعـوا شركاءكم فدعوهم فلـم يستجيبوا لهـم ورأوا العـذاب لو أنهم كانوا يهتدون » [2] .

وهذا المشهد من مشاهد القيامة عُجِّل بعرضه حتى يرعوى الخادع والمخدوع . .

وبعد مشاهد أخرى أو فى خلالها جاء كلام عن الله الحق أنه خالق البشر ، ومنشئ خصائصهم التى يتفاوتون بها ، والتى يصطفى على أساسها من شاء ويؤخر من شاء « وربك يخلق مايشاء ويختار ، ماكان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » [3] .

ثم تحدث عن النظام الذى خطّه لهذا الكون الذى نحيا بين أرضه وسمائه « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ » [4] .

إن الله جعل الظلمات والنور لكدْح طويل ، يُسأل كل أمرئ بعده عما قدم وأخر ، يستوى فى هذا التساؤل الملوك والصعاليك . . .

وفى ختام الحديث عن الاستبداد السياسى ، بدأ حديث آخر عن الطغيان الرأسمالى ، أساسه أن النجاة عند الله لاتتم إلا بالبراءة منهما والبعد عنهما .

ومن ثم شرع القرآن يروى قصة قارون ، الذى بلغ من الغنى حدًّا هائلا ، والمال ليس فى ذاته شرا ولاخيرا ، إنه أداة تعاب أو تحمد وفق طريقة استعمالها ، فالسلاح فى يد اللص أداة للقتل ، وفى يد الجندى أداة للدفاع أو القصاص .

ولذلك قيل لقارون صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة : « . . . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين » (٥) .

---

(١) القصص : ٦٢ ، ٦٣ (٢) القصص : ٦٤ (٣) القصص : ٦٨ (٤) القصص : ٧١

(٥) القصص : ٧٧

إن هناك أغنياء يبذلون مالديهم بسخاوة نفس ، ويبحثون عن كل خلة ليسدُّوها ، ويستقبلون الفقراء بحفاوة ، ويعطونهم قبل أن يسألوا . .

ويشكرون الله على ما أعطى وأعان ، ولايرون المال سبب استعلاء ولامصدر تطاول على الآخرين .

إنه اختبار من الله يؤدَّى حقُّه فيه ! .

لكن قارون رأى أنه كسب المال بعبقريته وحده ، وأن من حقه أن يشمخ به ويترف فيه وينظر إلى غيره شزرا !! « قال إنما أوتيته على علم عندى ! أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟ ولايُسأل عن ذنوبهم المجرمون »[1] .

إن رسل الله فيهم الغنىّ والفقير ، فيهم من كان ملكا ، ومن عاش على الكفاف . لكن غنيهم مابخل ولاطغى ، وفقيرهم ماعجز ولاهان .

وفتنة المال فى شتى الحضارات كانت قاسية ، وهى فى الحضارة الحديثة مصدر بلاء كبير ، وقد نشأت نظم ساخطة على التفاوت بين الناس ، فلم تصنع شيئا بل تولّت مسخوطا عليها .

والعلاج الصحيح يلتمس فى تعاليم الإسلام التى تصلح الأرض بوحى السماء ، وتؤكد للناس حقيقة واحدة هى قوله جل شأنه : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »[2] .

إن هذه الآية من سورة القصص جاءت بعد ماقصّ المولى سبحانه تاريخ الفرعونية الحاكمة ، والقارونية الكانزة ، ثم قال عن النهج السوىّ : « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ماكانوا يعملون »[3] .

ينبغى أن نعلم أن الحياة لاتصلح بغير دين ، ولا تستقيم بغير قلب سليم ، وأن التشريعات والنظم الوصفية لاتغنى عن الإيمان باليوم الآخر ، والتأهب له بالعمل الصالح . .

ويحزننى أن هناك متدينين لم يُشرِّفوا الإيمان بسلوكهم ، ولم يحققوا العدالة التى أمروا بإقامتها ، واكتفوا برفع شعار التوحيد على نحو ماقال شاعر المرجئة :

كن مسلما ، ومن الذنوب فلاتخفْ   حاشا المهيمن أن يُرى تنكيدا !!

لو شاء أن يصليك نار جهنّم . .   ماكان ألهم قلبك التوحيدا !!

والإرجاء شائع من أمد طويل بين جماهير المسلمين ، يرون أن العمل نافلة ، ومادام المرء مؤمنا بالله فهو ناج مهما فعل ! وقد هدَّ هذا الفكر دولة الإسلام من قرون .

---

(١) القصص : ٧٨   (٢) القصص : ٨٣   (٣) القصص : ٨٤

ولا تعود للمسلمين حضارتهم الأولى إلا بالإيمان والعمل معا . . .

لقد ختمت سورة القصص بخطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزلزل النفوس ، ويبين أن صاحب الرسالة أثقل الناس حملا من التكاليف الشاقة : « وماكنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، فلا تكونن ظهيرا للكافرين . ولايصدُّنك عن آيات الله بعد إذْ أنزلت إليك وادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلّها آخر لا إلّه إلا هو . . . »[1]

إن العلم النظريّ بوحدانية الله لايكفى ، فقد كان إبليس يعلم أن الله واحد ، بيد أنه رفض الخضوع له والامتثال لأمره فهوى .

وأمتنا لابد أن تجمع بين إيمان واضح ، وعمل صالح ، حتى يُمكّن لها ، وتستعدّ لآخرتها .

---

(١) القصص : ٨٦ـ٨٨

سُورَةُ العَنكبُوتِ

الابتلاء طبيعة هذه الدنيا التى نمرّ بها عابرين ، وننتقل إلى ماوراءها لنرى نتائج ما قدمنا ، نجاحا أو فشلا ، فإما إلى جنة وإما إلى نار !.

ويتفاوت هذا الاختبار شدة ولينا حسب الطبائع والأقدار والمهمات ، فبكاء امرأة ندَّ لها بعير غير بكاء رجل فقد ولده ومجده فى معركة هى بالنسبة له خاسرة !.

إن الهموم تناسب الهمم !.

وما أعظم الفروق بين مآرب الناس ومتاعبهم ، وقد فطن إلى ذلك أبو الطيب عندما قال :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتـى علـى قدر الكرام المكارم
ويكبر فى عين الصغير صغيرها وتصغر فى عين العظيم العظائم

والمكلّف بإصلاح حقل للزراعة غير المكلّف بإصلاح العالم وتطويعه لعبادة الله !.

وقد نظرت إلى الدنيا يوم طرقها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فاستغربت حالها شرقا وغربا : جماهير هائمة تعبد الأصنام ، وتتبع هواها فى ظل هذه الوثنية السائدة .

ويهود غايتهم العظمى خدمة أسرة يعقوب بزعم أنها الشعب المختار ! وأنهم سلالتها المفضلة على العالمين !.

أما الإيمان والإصلاح والدعوة إلى الله الحق فمسألة ثانوية مؤخّرة . . .

ثم هناك النصارى الذين جعلوا عيسى إلَها ـ وهو بشر كريم ـ وجعلوا جبريل إلَها وهو ملك أمين ، وجعلوا الخالق الأعظم إلَها ثالثا ، ثم قالوا : والكلّ بعدئذ إله واحد !!.

لقد غابت الأرض فى ظلمات بعضها فوق بعض .

وتجاه هذا الركام الكثيف جىء بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقيل له : أنت مكلف بتبديد هذه الغيوم كلها ، وقيادة الناس أجمعين إلى ربهم الذى تاهوا عنه .

فى الحديث القـدسى : « إنى خلقـت عبادى حنفاء كلّهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللـتُ لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا ».

وإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك . . . . !

ما أشدّ هذا الابتلاء ! رجل فذٌّ يكلف بإصلاح العالم، وتغيير مساره ودفع البشرية جمعاء فى طريق التوحيد والبرّ ! .

لقد اعتمد على الله وحمل العبء ، وهو حمل تنوء به الجبال .

ولكنه نهض به ، وكوّن من حوله صحابة أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وتعرض معهم للغربة والشدة والمعارك المتصلة . . وقاوم تقاليد راسية ، ودولا عظمى ، ولم يتقهقر أو تلنْ قناته حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا . . .

وبديهٌ أن يجزع البعض من هذا التكليف الشاق ، وأن يتراجع أمام الإهانات والمصائب ، ولكن الوحى ينزل « آلمّ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين »[(١)] ما أشبه الليلة بالبارحة .

إن العالم الآن متنكر لربه ، شارد عن سبيله ، وعلى رجال محمد أن يواجهوا الأعداء التقليديين ، وأن يعودوا بالجماهير إلى عبادة الله الواحد ، وأن يتحمّلوا متاعب هذا البلاء .

وفى سورة العنكبوت يقول الله : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنىٌّ عن العالمين »[(٢)] وفى آخر السورة وعْدٌ صادق من الله سبحانه يقول فيه : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »[(٣)] .

من اللطائف أن اسم المتوكل من أسماء النبىّ - صلى الله عليه وسلم - وهل العودة بالبشرية التائهة إلى ربها عمل سهل ؟ .

وهل اعتراض الدول العظمى جهاد خفيف ، إنه لابد فيه من توكُّل على الله ، وأمل فيه لايخبو سناه . .

إنه لابد فيه من منكب قوىّ وعزم حديد « ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . ولئن جاء نصر من ربك ليقولُنَّ إنا كنا معكم . أَوَليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين »[(٤)]

وهناك من يستعجل ثمرات هذا الجهاد أو يستطيل مراحله ! .

وتعليما لهؤلاء ذكرت السورة أن نوحا ظل يدعو ألف سنة إلا خمسين عاما .

وهناك من يغيب عنه المنطق العقلى فى التعريف بالله ، ويظن الجهاد حماسا أجوف .

---

(١) العنكبوت : ١ ، ٣   (٢) العنكبوت : ٦   (٣) العنكبوت : ٦٩   (٤) العنكبوت : ١٠

وتعليما لهؤلاء سرد القرآن بعض ماتبعه إبراهيم فى منهجه « أولم يرَوْا كيف يُبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة »(١) .

وهناك من طغت حيوانيتهم فأسرفوا فى الشهوات الجنسية إسرافا منكورا ، وشذوا عن سنة الفطرة فى الزواج الشريف ، فقال لوط لهم : « إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين . أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر »(٢) .

والغريب أن مدنية الغرب سارت فى الطريق نفسه ، حذو النعل بالنعل ، وهى الآن تتعرض لطاعون « الإيدز » والسبب أنهم رفضوا الإطار الذى صنعه الإسلام حول الشهوة الجنسية ، وكيف جعل الزواج عبادة ، وكيف صنع سدودا أمام المثيرات والمغريات بالحرام .

ومضت السورة تحصى أمما تمردت على الله وكرهت منهاجه ، فماذا وقع لها ؟ « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا . . . »(٣) .

هل القوى المرهوبة وقفت أمام العقوبات الإلٰهية ؟ كلا ، كما تعصف الريح ببيت العنكبوت عصفت بكيانهم فصار هباء .

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »(٤) .

فليتحمل المجاهدون الأعباء ، وليثقوا بالمستقبل إما فى هذه الدنيا ، وإلا ففى يوم الجزاء .

أهل الكتاب صنفان : صنف لايضنّ علينا بحق الحياة والعبادة والدعوة ، بل يدعنا وشأننا ، وهؤلاء لهم مالنا وعليهم ماعلينا ، ولاتخفر لهم ذمة ، ولاينقض لهم عهد ! .

وصنف آخر يضيق بنا وبكتابنا ونبينا ، ويسعى لنقض بنائنا ، وتنكيس لوائنا ، ومن حقنا أن نتحفظ من هؤلاء ونحتاط ! ولايكلفنا عاقل أن نأمن لهم ! .

وسورة العنكبوت تتضمن إرشادا عاما فى معاملة هؤلاء وأولئك « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون . وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به ومايجحد بآياتنا إلا الكافرون »(٥) .

وودت لو أن «لجنة » من المحايدين العقلاء نظرت فى العلاقة بين الشرق والغرب على امتداد

---

(١)العنكبوت : ١٩ ، ٢٠ (٢) العنكبوت : ٢٨ ، ٢٩ (٣)العنكبوت : ٤٠
(٤)العنكبوت : ٤٣ (٥) العنكبوت : ٤٦ ، ٤٧

التاريخ الماضى والمعاصر ، وكشفت عن مثيرى الحروب الدامية بينهما ، خصوصا المدة من زحف الرومان على العالم ، ووقوع غرب آسيا وشمال إفريقية فى أيديهم .

أكان الإسلام معتديا حين حرر هذه الأقطار من براثنهم ؟ ثم عاود أبناؤهم وأشياعهم الهجوم فى الحروب الصليبية الأولى ، فَرُدُّوا على أعقابهم بعد مئات السنين من الكر والفرّ .

ثم عادوا فى العصر الحديث بدءاً من هجوم نابليون على مصر ، وموسولينى على ليبيا والحبشة ، وتأليفه وزارة للمستعمرات الإسلامية ! ثم اجتاح الفرنسيون دول المغرب كلها ، واجتاح الإنكليز وادى النيل .

وسقطت القارة الإسلامية فى يد أهل الكتاب ، فهل نحن المعتدون فى هذه الحروب الآثمة ؟ .

واليوم تسعى جماهير المسلمين إلى العيش بدينها فيحرمون منه ، وتكال لهم التهم ، فأين الإنصاف فى هذا المسلك ؟ .

والمسلمون يؤمنون بكل سطر فى كتابهم ، ويودون العمل به ، فلماذا يمنعونهم منه ؟ ويتطاولون على صاحبه ؟ ويتهمونه بالكذب ؟ « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلـون . بل هو آيـات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ومايجحد بآياتنا إلا الظالمون »[1] .

إن الفتنة بمظالم أهل الكتاب شديدة .

وقد شنوّا فى هذه الأيام هجوما عاما ليردُّوا المسلمين عن دينهم ويقلِّصوا العمل به فى أضيق نطاق حتى يتم القضاء عليه شكلا وموضوعا !! .

وقد ردّدت سورة العنكبوت شبهة طالما أثارها الوثنيون عندما طالبوا محمد بخوارق العادات معجزة له ، فقيل لهم : المعجزة المنشودة فى هذا الكتاب الذى يسمعون آياته ! « وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه ؟ قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ! أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »[2] .

إن القرآن معجزة باقية على امتداد العصور ، وأثره النفسىّ والاجتماعى عميق ، وقد حفظ أمتنا فى أشد الأزمات التى نزلت بنا ، ولم أر كتابا مثله فى إنشاء علاقة بين المرء وربّه تقوم على التقوى واليقين .

أما تعريفه بالله من خلال النظر فى الكون . فاسأل علماء المادة هل وجدوا فى هذا التعريف إلا ما بهر وسرّ ؟ لماذا ؟ لأنه « أنزله الذى يعلم السرَّ فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما »[3] .

---

(١)العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩ (٢) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١ (٣) الفرقان : ٦

ولقد هززت رأسى عجبا وأنا أسمع كاهن الفاتيكان الأعظم يناشد الناس أن يستعملوا الأغشية الواقية من الإيدز عندما يباشرون العلاقات المحرمة ! .

أهذه غاية الجهد ؟ أهذا عمل الدين ؟ .

إن القرآن يصنع أجيالا تصحب ربها بمشاعر الرغبة والرهبة ، وتجعل من هذه الصحبة أسلوب حياة ومنهج سلوك شريف !! .

وذلك بعض إعجاز الكتاب الكريم .

وقد تطول المعارك بين الحق والباطل ، وتفدح مغارمها ويتساءل العَجِلُون متى النصر ؟ ويقول الكافرون : أين ماتهدوننا به ؟ « ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمّى لجاءهم العذاب . وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون »[1] .

وقد ترادفت على المسلمين الفتن وقيل للتاجر الصغير فى مكة : أغلق دكانك وهاجر لتقيم دولة الإسلام .

ويتساءل التاجر الفقير : كيف أعيش هناك ؟ فيجاب بهذه الآية « وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » [2] ! وتتم الهجرة ويتعاون المهاجرون والأنصار ويتحقق النصر بعد ابتلاء صعب ! .

إن الإيمان الذى صنعه القرآن صنع العجائب ولايزال يصنع . .

إذا كان هناك فى عصرنا الذى ملكته الحضارة الحديثة وغزته بفلسفتها المادية مَنْ يعبد الحياة ، ويجحد مابعدها فإن هناك مسلمين يؤمنون بالدنيا والآخرة ، ويعلمون أن الوجود هنا موقوت وقاصر ، أما هناك فبصر أحدّ ، وسمع أقوى ، وشهود لايغلبه حجاب ! « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » [3] .

وتختم سورة الابتلاء بهذا التساؤل « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه . أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »[4] .

---

(١)العنكبوت : ٥٣ (٢) العنكبوت : ٦٠ (٣)العنكبوت : ٦٤ (٤)العنكبوت : ٦٨ ، ٦٩

الفهرس

صفحة

رقم الايداع ٩٣/٥٠٧٢
I.S.B.N 977-09-0086-9

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم

☐ هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم ، سبق أن قدمت نماذج لها فى بعض ماكتبت .

☐ والهدف الذى سعيت إليه منها أن أقدم تفسيرا موضوعيا لكل سورة من الكتاب العزيز .

☐ والتفسير الموضوعى غير التفسير الموضعى :

الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام .

أما الأول فهو يتناول السورة كلها ، يحاول رسم « صورة شمسية » لها تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلها ، وتجعل أولها تمهيدًا لآخرها ، وآخرها تمهيدا لأولها .

ولقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع فى السورة ، وإن كثرت قضاياها .

☐ وقد شعرت ـ على ضوء ما أحسست من نفسى ـ أن المسلمين بحاجة إلى هذا اللون من التفسير .

☐ وانبه إلى أن هذا التفسير الموضوعى لايغنى أبدا عن التفسير الموضعى بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة .

☐ وهناك معنى آخر للتفسير الموضوعى لم أتعرض له ، وهو تتبع المعنى الواحد فى طول القرآن [illegible] وحشده فى سياق قريب ، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس .

وقد قدمت نماذج لهذا التفسير فى كتابىَ « المحاور الخمسة للقرآن الكريم » و «نظرات فى ا[illegible]

ولاريب أن الدراسات القرآنية تحتاج إلى هذا النسق الآخر ، بل يرى البعض أن المستقبل له [illegible]

والله المستعان ، ،



محمد الغزالي